هوامش على أزمة الفكر الإسلامي المعاصر

(نظرة نقدية)

أ.د/محمود حمدي زقزوق
وزير الأوقاف الأسبق
عضو هيئة كبار العلماء



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



مقدمة

لقد كانت بداية التفكير في موضوع هذا البحث عندما تقدمت بمذكرة إلى هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف- بصفتي عضوًا بهذه الهيئة الموقرة- تشتمل على تصور مبدئي مقترح لخطة عمل الهيئة بعد تشكيلها الجديد بالقرار الجمهوري رقم ٢٤ لسنة ٢٠١٢م في ١٧ / ١٠ / ٢٠١٢م.

وبعد مناقشة المذكرة في الهيئة الموقرة رأيت أنه قد يكون من المفيد أن أفصل القول في بعض جوانب الموضوع، وأن أضع له عنوانًا جديدًا هو:

(هوامش على أزمة الفكر الإسلامي المعاصر)

ولكنني أردت في الوقت نفسه ألا يخرج هذا البحث عن الإطار العام الذي تضمنته المذكرة المشار إليها. وما قصدته في واقع الأمر من هذه الهوامش هو التنبيه إلى ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع في نطاق دائرة أوسع من جانب العلماء المعنيين بمسيرة الفكر الإسلامي. فالمسئولية عن المأزق الحالي للفكر الإسلامي مسئولية مشتركة، وفي حاجة ماسة إلى تضافر جهود الجميع في محاولة جادة للخروج بالأمة من النفق المظلم الذي حوصرت فيه.

وقد تناولنا موضوع هذا البحث في ثلاثة فصول:

● خصصنا الفصل الأول منها لمقدمات عامة.

● أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان: من مظاهر الجمود في الفكر الإسلامي المعاصر وضرورات التجديد.

● أما الفصل الثالث والأخير فقد جاء بعنوان: الجانب الحضاري في الإسلام والفرائض الغائبة.

ونأمل أن يكون في هذا البحث الموجز فائدة لقارئ أو نفع لباحث أو تنبيه لغافل. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د. محمود حمدي زقزوق
عضو هيئة كبار العلماء
٢٧ من ربيع الآخر ١٤٣٥هـ
٢٧ من فبراير ٢٠١٤م

الفصل الأول
مقدمات عامة

١- تحديد معنى الفكر.
٢- العقل الإنساني.
٣- الطابع الإنساني للفكر الإسلامي.
٤- ملامح أزمة الفكر الإسلامي المعاصر.
٥- الإسلام والفكر الإسلامي.
٦- التجديد والاجتهاد.

١ - تحديد معنى الفكر

الفكر يعني لدى الفيلسوف الشهير ديكارت : جملة النشاط الذهني من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة . وهذا ما قصده بعبارته الشهيرة : «أنا أفكر إذا أنا موجود» .

ولكن هذا - كما نرى - معنى واسع فضفاض أراد به ديكارت أن يشمل كل ما تنطوي عليه الذات الإنسانية من أمور لا مادية ، وذلك في مقابل كل ما هو مادي .

وهناك بجانب هذا المعنى الديكارتي حشد آخر من التعريفات التي ينصب معظمها على توضيح معنى الفكر من ناحية ما يقوم به من مهام قد تكون أكثر تحديدًا . وفيما يلي نشير إلى أهم هذه التعريفات لاستخلاص السمات الأساسية للفكر :

● أولا : الفكر بالمعنى الخاص يعني ما يتم به التفكير من أعمال ذهنية ، كما يعني أيضًا أنه «أسمى صور العمل الذهني بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق»[١] .

● ثانيا : الفكر يعني لدى الفيلسوف ابن سينا : «الانتقال من أمور حاضرة في الذهن إلى أمور غير حاضرة فيه ، وهذا الانتقال لا يخلو من ترتيب»[٢] . وفي السياق ذاته يشير الشريف الجرجاني في التعريفات إلى أن الفكر : «ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول»[٣] .

---

(١) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ١٣٧- القاهرة ١٩٧٩م.

(٢) المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبة وآخرين ص١٦٢، ١٦٣- دار الثقافة الجديدة ١٩٧١م.

(٣) التعريفات للشريف الجرجاني ص١٤٧ طبعة الحلبي ١٩٣٨م.

● ثالثـا : الفكـر بوجـه عـام يعنـي كل حركة فـي تصوراتنا ومفاهيمنا[٤] .

● رابعـا : الفكـرة قـوة تبعـث فكـرات أخـرى وتدفـع إلى العمل»[٥] .

وهـذه التعريفـات جميعهـا لا يناقض بعضها بعضًـا ، وإنما تتكامل . ويمكن أن نستخلص منها الأمور التالية :

١- الفكـر هو إعمال العقل فـي المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول ، وهذا يعني أن الفكر عمل إبداعي يهدف إلى البحث عن أمور جديدة تثري الحياة العقلية والمادية معًا .

٢- الفكـر في حركـة متواصلة لتصوراتنـا ومفاهيمنا . فإذا أردنـا أن نضبط حركة هذه التصـورات والمفاهيم ، وألا نتركها تحـوم في النفس كيفمـا اتفق ، وذلك بإحكام السـيطرة عليها علـى نحو منظـم في إطار قواعـد صارمة تقود إلـى الهدف وهو العلم فإننا بذلك نكون قد طرقنا باب التفكير العلمي .

٣- إذا كان الفكر في حركة مستمرة وليس أمرًا ساكنًا فهذا يعني أن من شأنه أن يدفع إلى العمل «فالفكرة قوة تبعث فكرات أخرى وتدفع إلى العمل» .

وحتـى تكتمل الصورة لا بـد لنا من توضيـح معنى التفكير العلمي الذي أشرنا إليه .

---

(٤) مدخل إلى الفكر الفلسفي لبوخينسكي ومن ترجمتنا ص ٦٧، ٦٨- دار الفكر العربي ١٩٩٦م..

(٥) المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبة وآخرين (مرجع سابق)

إن التفكيـر العلمـي بالمعنى الخاص لا يمارسـه إلا العلماء المتخصصـون، كلٌّ فـي مجـال تخصصـه، ولا يسـتطيع غيـر المتخصـص أن يخوض فيـه نظرًا إلى أن العلمـاء في كل مجال يسـتخدمون لغة متخصصة هي لغـة اصطلاحات ورموز مُتعارف عليها بين العلماء في كل مجال من مجالات العلم.

ويختلف هذا النوع مـن التفكير العلمي عن نوع آخر يمكن أن يطلق عليه أيضًا أنه تفكير علمي بالمعنى الواسـع، وإن كان تفكيرًا غير متخصص. ونعني به «ذلك النوع من التفكير المنظم الذي يمكن أن نسـتخدمه في كل شـئون حياتنـا اليومية. وكل ما يشـترط فـي هذا التفكير هو أن يكون منظمًـا وأن يُبنى على مجموعـة من المبادئ التي نطبقها في كل لحظة دون أن نشـعر بها شـعورًا واعيًـا مثل مبدأ عدم التناقض الذي يعني أن الشـيء الواحد يستحيل أن يكون في مكانين في آن واحد، وكذلك مبدأ السـببية الذي يعني أن لكل حادث سببًا. فهذه المبادئ تُعد من المبادئ الفطرية في العقل الإنساني لدى جمهور الناس، وإن لم يكن المرء على وعي كامل بها»[٦].

وقد اهتم القـرآن الكريم بالفكر بوصفه الوظيفة الأساسـية للعقل الإنسـاني الـذي هو أعظـم النعم التي أنعـم الله بها على الإنسان. وقد وردت مشتقات الفكر في القرآن في ثماني عشرة

---

(٦) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص٥ ، ٦. سلسلة عالم المعرفة، الكويت. ط.ثالثة ١٩٨٨م.

آية معظمها بلفظ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ للحث على التأمل والتفكير والدراسة والبحث، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

فهذه الآية تُعبر عن دعوة صريحة إلى التأمل والتفكير وإعمال العقل في كل ما خلقه الله في هذا الكون والبحث فيه عن كل ما يعود على البشرية كلها بالخير.

ويستخدم القرآن الكريم أيضًا لفظا آخر يدل على التفكر وهو التدبر. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(النساء: ٨٢)

وانطلاقًا من حقيقة أن الإسلام حريص كل الحرص على استخدام المسلم كل ملكاته الفكرية فيما خُلقت من أجله أطلق المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد على أحد كتبه القيمة عنوانًا أصاب به كبد الحقيقة وهو: «التفكير فريضة إسلامية». فالمعروف أن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة بنص الحديث الشريف. وما دام العلم لا يقوم إلا بالتفكير والبحث والتنقيب فإن التفكير يحتل المرتبة ذاتها التي للعلم بناء على قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إن التفكير يُعد سمة جوهرية للإنسان في كل زمان ومكان

منذ أن خلقه الله وإلى قيام الساعة. ولا يستطيع أحد كائنًا مَن كان أن يسلب منه هذه الصفة الأساسية. ومن هنا فإن محاولات التعصب العرقي التي تهدف إلى دمغ أجناس بشرية معينة بضحالة التفكير وسطحيته، والإعلاء من شأن أجناس أخرى على أنها هي وحدها التي تستطيع أن تتعمق وتفكر بطريقة تركيبية - كما حاول إرنست رينان من قبل فيما يتعلق بالجنس السامي والجنس الآري- إن هي إلا محاولات فاشلة ليس لها مكان في محراب العلم، ومثلها كمثل مَن يحاول أن يمنع ضوء الشمس بوضع يده في مقابلها[٧].

وغني عن البيان أن نؤكد أن الفكر الإنساني فكر متجدد ومتطور كالنهر الجاري. والفكر هو الذي يقود قاطرة التجديد والتغيير في كل أمة. وهناك علاقة وثيقة بين إصلاح الفكر بصفة عامة وإصلاح الفكر الديني بصفة خاصة. فكل منهما يؤثر في الآخر إيجابًا أو سلبًا في أي مجتمع إنساني. والفكر السليم من شأنه أن يكون رائدًا للتقدم والتطور وقائدًا لمسيرة التحضر في المجتمع. وتلك هي طبيعة الأمور. فالتغيير سنة الحياة وقانون الوجود.

---

(٧) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٤٩- القاهرة ١٩٥٩م.

٢ - العقل الإنساني

وعندما نتحدث عن التفكير فإننا بذلك نتحدث في الوقت نفسه عن العقل ؛ لأن التفكير وظيفة العقل الإنساني ، وبدون العقل لا يتصور أن يكون هناك تفكير . وقد اهتم الفلاسفة في كل العصور بالعقل اهتمامًا بالغًا ، فالتفكير الفلسفي لا مجال له بدون العقل . وقد كان أول تعريف للإنسان ورد عن الفلسفة اليونانية القديمة هو الإنسان حيوان ناطق أي كائن حي عاقل .

وقد أكد الإسلام على أهمية العقل بوصفه الميزة الجوهرية للإنسان على غيره من الكائنات في هذا الوجود . كما أنه يُعد مناط التكليف والمسئولية . وبدون العقل لا مجال للحديث عن تكليف أو مسئولية ، فالمجنون فاقد للعقل وبالتالي فليس أهلا للمسئولية الدينية أو الدنيوية .

ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه . وذلك ما يُؤخذ من الآيات القرآنية العديدة التي وردت الإشارة فيها إلى العقل . والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه ، فهو يخاطب العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبر والروية . وهذا العقل يقابله الجمود والعنت والضلال[٨] .

---

(٨) التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص١٧- منشورات المكتبة العصرية - بيروت (بدون تاريخ)

وقد وعى رجال الفكر الإسلامي القيمة الكبرى التي يسبغها الإسلام على العقل... ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التي أرادها الله كان حرص الإسلام شديدًا على إزالة كل العوائق التي تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته. ومن أجل ذلك رفض الإسلام التبعية الفكرية، والتقليد الأعمى، وقضى على الدجل والشعوذة والاعتقاد في الخرافات والأوهام وأبطل الكهانة، كما ركز الإسلام على المسئولية الفردية، وحرر الفرد من أي سلطة دينية أو دنيوية، ورفعه إلى مقام العزة التي يقول القرآن الكريم فيها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨)

كما قرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن المؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم[٩].

وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعي ويفهم، وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده، وخلصه من كل تقليد كان يستعبده، وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه كما يقول الشيخ محمد عبده: «أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال

---

(٩) راجع كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية. ص ٣٢ وما بعدها- دار الفكر العربي ٢٠٠٣م القاهرة.

الإرادة واستقلال الرأي والفكر»[10] وقد كان لهذا الموقف الأساسي للإسلام من العقل أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية.

وقد كانت دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكذا يجعل الإسلام من التفكير واجبًا مقررًا وفريضة إسلامية كما سبق أن أشرنا-. ومن هنا قرر الفيلسوف ابن رشد (٥٩٥هـ) أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وذلك أخذا من آيات القرآن العديدة في هذا الشأن[11].

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبًا دينيًا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى تعد مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية. وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)[12]

---

(١٠) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص١٣٣ (دار إحياء العلوم- بيروت١٩٧٩م)

(١١) فصل المقال لابن رشد ص١٠ (مطبوع مع الكشف عن مناهج الأدلة تحت عنوان: فلسفة ابن رشد- المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر١٩٦٨م)

(١٢) راجع كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص٣٣ (مرجع سابق)

٣- الطابع الإنساني للفكر الإسلامي

وغنـي عن البيان أن ما سـبق بيانه مـن توضيح لمعنى الفكر والتفكير ينطبق على الإنسـان بصفة عامة في كل زمان ومكان، فـإذا وصفنـا هذا الفكر بأنه إسـلامي فهل يعني ذلـك أننا بهذا الوصـف قد أعطيناه إطارًا خاصًّـا يجعله منفصلاً أو مناقضًا لأي لون آخر من ألوان الفكر الإنساني؟

ولكـي نجيب عن هذا السـؤال نود أن نؤكـد على حقيقتين مهمتين:

● أولاهمـا: أن الله قد أعطى العقل لكل الناس بصرف النظر عـن معتقداتهم وألوانهم وأشـكالهم وغير ذلك من فروق، وقد حدث ذلك منذ اللحظة التي خلق الله فيها آدم عليه السلام فبعد أن خلقـه الله من طين، أي من مـادة، نفخ فيه من روحه كما جاء في الآية الكريمة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٩)

ويلفـت النظر في هذه الآية الكريمة أن الله لم يقل: ونفخت فيـه الـروح، وإنمـا أضـاف ذلك إلـى ذاته جـل وعـلا بقوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾. والعقـل الإنسـاني أثر مـن آثار هذه النفخة الإلهية الروحية. ومن هنا فالعقل والتفكير من خصائص الإنسـان، مطلق الإنسـان، في كل زمان ومكان. فالعقل قسمة مشـتركة بيـن الناس جميعًـا أو – كما يقول ديـكارت: «أعدل الأشياء قسمة بين الناس».

● ثانيًا : إن من الطبيعي أن يختلف تفكير الناس في أمور كثيرة، فهم ليسوا نسخًا مكررة، وإنما لكل إنسان شخصية مستقلة تختلف عن بقية أبناء جنسه. وقد أعطانا الله رمزًا عالميًا للتأكد من ذلك عندما خلق الناس مختلفين حتى في بصمة إبهامهم.

والفكر الإسلامي بصفة عامة يشترك مع كل ألوان الفكر الإنساني الأخرى، ولا يجوز له أن ينفصل تمامًا عنه في كل تنوعاته، والعقيدة الدينية تعد أحد تنوعات الفكر الإنساني من حيث إنها تقوم بناءً على إرادة حرة واختيار شخصي في الأساس. ولا يطعن في ذلك أن العقيدة الدينية يرثها الطفل من والديه، فمن حقه عندما ينضج عقله أن يفكر ويبحث في العقيدة التي نشأ عليها دون ضغط أو إكراه(١٣)، وما عدا أمور العقيدة فالكل سواء. فالفكر عملية إنسانية يشترك فيها كل الناس، ومن ناحية أخرى فالإسلام ليس عقيدة فقط، وإنما هو أيضًا أخلاق وحضارة، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

ومن المعلوم أن التراث الإنساني - الذي هو نتاج العقل الإنساني - قسمة مشتركة بين كل الناس، وهو أخذ وعطاء يأخذ منه كل امرئ ما يشاء. ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث الإنساني. وقد أشار

---

(١٣) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ص٦٣- دار الأندلس - بيروت١٩٦٧م.

الفيلسوف الكبير ابن رشد إلى أن النظر في كتب القدماء واجب شرعًا، وقال: «ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»[١٤].

ويتضح لنا مما سبق أن وصف الفكر بأنه إسلامي لا يتناقض مع الفكر الإنساني بصفة عامة، بل يتفاعل مع هذا الفكر الإنساني أخذًا وعطاء. وقد أسهم علماء كثيرون من غير المسلمين -في فترة البناء للحضارة الإسلامية- في إثراء الفكر الحضاري لدى المسلمين، واستظلوا براية هذه الحضارة الإسلامية. وقد رأينا ذلك في الشرق الإسلامي، كما رأيناه أيضًا في بلاد المغرب الإسلامي، وفي الأندلس بصفة خاصة حيث عاش في ظل الحضارة الإسلامية أتباع الديانات السماوية الثلاثة في تسامح منقطع النظير، وأثروا وتأثروا بإنجازات هذه الحضارة؛ لأنها حضارة إنسانية تسع الإنسان دون تمييز بصرف النظر عن معتقده الديني. فالمعنى الإنساني إذن هو السمة الغالبة على الحضارة الإسلامية بصفة عامة.

وإذا أردنا أن نشير إلى بعض الأمثلة - التي تعبر بوضوح تام عن شمول القيم الإسلامية لكل المعاني الإنسانية في أرقى

---

(١٤) فصل المقال لابن رشد ص١٧ (ضمن كتاب فلسفة ابن رشد) بيروت١٩٨٢م.

صورها فيكفي أن نشير أيضًا في هذا الصدد إلى ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى لنبيه ﷺ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

كما نشير أيضًا إلى الآية الكريمة :

﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾

(المائدة: ٣٢)

ومقاصد الشريعة الإسلامية تنسحب على المسلم وغير المسلم لأن الله- كما جاء في القرآن- قد كرم الإنسان- مطلق الإنسان :

﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ومن هنا فإن مقاصد الشريعة التي تشتمل على حفظ أو حماية النفس والعقل والدين والمال والنسل تنطبق على جميع الناس في الدولة الإسلامية. فالقاعدة الإسلامية -التي أقرها النبي ﷺ في التعامل مع غير المسلمين منذ دستور المدينة الذي أعلنه النبي الكريم بعد الهجرة إليها هي: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

ونضيف إلى ما تقدم تعبيرًا عن المعنى الإنساني الذي يؤكد

عليه النبى ﷺ ما ورد في السنة النبوية من أن النبي كان في يوم من الأيام جالسًا مع بعض صحابته فمرت بهم جنازة فقام واقفًا احترامًا للميت، فقال له بعض الصحابة: إنها جنازة يهودي يا رسول الله. وهذا يعني – في رأيهم – أنه لم يكن هناك داع للوقوف ما دام الميت ليس مسلمًا. ولكن النبي الذي جاء برسالته رحمة للعالمين، وهي رسالة تحترم الإنسان الذي هو صنعة إلهية – في حياته وفي مماته أيضًا – رد عليهم قائلا: أليست نفسًا؟. (البخاري ومسلم)

ولا يظنن ظان أننا – من خلال ما عرضناه هنا – نلغي خصوصيات كل دين فيما يشتمل عليه من عقائد يلتزم بها أتباع كل دين. فهذه الخصوصيات أمر مسلم به، ولا جدال فيه. وحديثنا ينصب فقط على المعنى الإنساني العام الذي تمتاز به الحضارة الإسلامية.

٤ - ملامح أزمة الفكر الإسلامي المعاصر

ومن الأمور التي لا تخفى على كل غيور على مسـيرة الإسلام أن الفكر الإِسـلامي في عالمنا المعاصر يعيش حالة من الركود أو الجمـود أو التوقف أو الاسـترخاء أو ما شـئت مـن مرادفات لهذه الألفاظ، وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الفكر الإِسـلامي يعانـي أزمة خانقة، وتتجاذبه تيـارات متناقضة ـ يزعم كل منها أنه يسعى لإِنقاذه من هذه الأزمة التي تحيط به من كل جانب.

والمتأمـل فـي أوضـاع عالمنا العربي الإِسـلامي فـي العالم المعاصر تسـتبد بـه الدهشـة للحيـرة والارتباك المسـيطرين على خطـوات المجتمعات العربية الإِسـلامية، فهنـاك تيارات فكرية تحاول أن تشـد هذه المجتمعـات إلى الوراء متعامية عن مسـتجدات العصر ومـا طرأ على العالم من تطـورات جوهرية، وهنـاك في الوقت نفسـه تيـارات أخرى تحـاول أن تجذبها من وَهْدَتهـا[١٥] بطريقة قد تفقدها توازنهـا وتقتلع معها جذورها، بـل وتفقدها هويتهـا. ويبدو الأمر كما لو أنـه خيار بين تيارين متطرفين يمثلان إفراطًا في جانب وتفريطًا في جانب آخر[١٦].

وفي هذا المعنى يقول شـكيب أرسـلان: «ومن أكبر عوامل انحطاط المسـلمين الجمود على القديم، فكما أن آفة الإِسـلام هـي الفئة التي تريد أن تلغي كل شـيء قديم بدون نظر فيما هو

(١٥)الوهدة: الأرض المنخفضة. (المجلة)

(١٦) انظر كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ١٣٠.

ضـار منه أو نافع، كذلك آفة الإِسـلام هي الفئـة الجامدة التي لا تريـد أن تغير شـيئًا، ولا ترضى بإِدخال أقـل تعديل على أصول التعليم الإِسـلامي ظنًا منهم بـأن الاقتداء بالكفار كفر وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار» [١٧].

ولا شـك في أن المظلوم في ظل هذا الصراع هو الإِسلام ذاته الـذي يدعي كل فريـق أنه يريد إنقـاذه والحفـاظ عليه وهكذا أصبحنـا نحـن المسـلمين سـببًا في توقـف العطـاء الحضاري للإِسـلام، وأدى بنـا هذا الحال إلـى التوقف فـي مفترق طرق، وجعل خصوم الإِسـلام يصرون على أن التخلف الذي تعاني منه الأمة الإِسـلامية بصفة عامة يرجع إلى الإِسلام ذاته، وإلى جمود تعاليمه ـ كما يزعمون.

وحقيقة الأمر أن هذه النظرة السطحية ـ المناقضة لحقائق التاريخ وحقائق الإِسـلام ذاته ـ والتي تنظر إلى تخلف الحضارة الإِسـلامية بصفة عامة والفكر الإِسـلامي بصفة خاصة على أنه تخلف للإِسلام ذاتـه نظرة خاطئة وظالمة وليسـت وليـدة اليوم، وإنمـا هي نظرة قديمة تخلط بين المطلق والنسبي وبين العارض والثابت . وهكذا يظل الإِسلام مظلومًا من أتباعه وخصومه على السواء .

---

(١٧) شكيـب أرسـلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهـم؟ ص ٨٨ ـ دار البشير للطباعة والنشر ١٩٨٥م. وما قاله شكيب أرسلان هنا بشأن التعليم منذ حوالي ثمانية عقـود قد تغير بعض الشيء من الناحية العملية فيما عـدا مناطق محدودة في آسيا وإفريقيا، وبصفة خاصة لدى جماعة بوكو حرام (أي التعليم الغربي حرام) في نيجيريا والتي تقاتل بالسلاح منذ سنوات في سبيل فرض تصورها في هذا الشأن.

ومـن بين كبار الفلاسـفة في العصـر الحديـث الذين وقعوا فـي هـذا الخلط المعيـب بين التخلـف الحضاري للمسـلمين من جانب والإسـلام من جانب آخر الفيلسـوف الشـهير هيجل (ت ١٨٣١م) وهو فيلسـوف طبقت شـهرته الآفـاق كما هو معروف وفي كتابه فلسـفة التاريخ الذي صدر منذ حوالي قرنين من الزمان ـ خصص فصلاً عن الإسـلام تحدث فيه عن هذا الدين حديثًا يختلط فيه الحق بالباطل والصواب بالفهم الخاطئ، وقد ختم هذا الفصل بقوله: «لقد تراجع الإسلام إلى آسيا وإفريقيا، وسُـمح له بالبقاء في ركن صغير مـن أوروبا (لعله يقصد تركيا وبعـض بلاد البلقان)، وذلك بسـبب غيرة القوى المسـيحية» ويضيـف قائلًا: «لقد اختفى الإسـلام منذ زمـن طويل من أرض التاريخ العالمي (أي لم يعد له تأثير في توجيه أحداث التاريخ) وارتد إلى الاسترخاء والسكون الشرقي»[١٨].

وهذه العبارة الأخيرة هي بيت القصيد، فهو يعتقد أن الضعف الـذي أصـاب المسـلمين وجعلهم يفقـدون التأثير فـي توجيه أحداث التاريخ هو ضعف واسترخاء وركود للإسلام ذاته. وهذا يعنـي ـ في زعمه ـ أن الإسـلام بتعاليمه لـم يعد قادرًا على الأخذ

---

(١٨) Hegel; philosophie der Geschichte,p.485- 491 Reclam,stuttgart1961

راجـع أيضًـا كتابنا: الإسلام في مـرآة الفكر الغربي صـ ١٤٣ ـ ١٥٠ دار الفكر العربي ١٩٩٤م. ولو كان هيجل قد وضع لفظ (المسلمون) بدلًا من (الإسلام) في النص المشار إليه في قوله: (لقد تراجع الإسلام ...) وفي قوله: (لقد اختفى الإسلام ...) لكان محقًا في ذلك وكنا نوافقه عليه تمامًا. ولكنه للأسف خلط بين الإسلام والمسلمين خلطًا ظالمًا وغير مبرر.

بيد المسلمين نحو التقدم والارتقاء، مع اعتراف هيجل بأن الإسلام كان له في السابق تأثير كبير في هذا المجال.

فقد وصف الإسلام بأنه ثورة الشرق، وأنه حرر وحدة الألوهية من صفة الجزئية التي ألصقها اليهود بالإله الذي يُعدُّ في عرفهم إله الشعب اليهودي فقط، فهم شعب الله المختار، كما يعترف هيجل بأن الدخول في الإسلام كان يعني حصول الفرد على كل الحقوق التي يتمتع بها المسلمون، ويشير إلى أنه في ظل الإسلام انتشرت العلوم والفنون في العالم الإسلامي بسرعة فائقة، ولكنه يشير أيضًا إلى تدمير مكتبة الإسكندرية في عهد عمر بن الخطاب، وتلك فرية أثبت التحقيق العلمي أنها مكذوبة، وأن المكتبة قد أُحرقت قبل دخول الإسلام إلى مصر بحوالى ثلاثة قرون (١٩).

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أننا عندما نتحدث عن الفكر الإسلامي فإننا نعني بذلك كل ما أنتجه العقل الإسلامي من إبداع في جميع المجالات وليس في مجال العلوم الدينية فقط -كما قد يتبادر خطأ إلى أذهان البعض- فهذا جانب واحد فقط. والحضارة الإسلامية قامت على أساس جهود علماء المسلمين في جميع مجالات الفكر الإسلامي الدينية والفلسفية والعلمية وغيرها من آداب وفنون.

ومن الواضح أن هناك تخلفًا في هذه المجالات جميعها في العصر الحاضر.

---

(١٩) راجع : زيجريد هونكة، (الله ليس كذلك)، ترجمة غريب محمد غريب ص ٧٣ وما بعدها- دار الشروق ١٩٩٥م.

٥-الإسلام والفكر الإسلامي

ومن الضروري في هذا المقام توضيح الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي، أو بمعنى آخر توضيح صلة القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بالفكر الإسلامي لإزالة الوهم الناشئ عن الخلط بين الإسلام والفكر الإسلامي، وتحميل الإسلام مسئولية التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلامية في العصر الحاضر، وعلى الرغم من أن الفرق بينهما واضح بشكل قد لا يحتاج إلى توضيح فإن الخلط بينهما لا يزال قائمًا بسوء نية أو بحسن نية.

إن الإسلام بوصفه خاتم الأديان يقوم على أصلين أساسيين هما القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهذان الأصلان متحدان ولا يجوز الفصل بينهما، أما القرآن ـ الذي هو الأصل الأول للإسلام ـ فهو الوحي المنزل على محمد ﷺ والذي لم يتبدل أو يتغير منه شيء منذ أوحي به إلى النبي الخاتم، وهذا أمر لاخلاف عليه بين المسلمين جميعًا في كل العصور، فهو:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

(هود : ١)

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾

(فصلت : ٤٢)

وقد تكفل الله بحفظه ـ كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾

(الحجر : ٩)

وإذا كان هناك من غير المسلمين من يتشكك في الشهادات القرآنية للقرآن على هذا النحو المشار إليه فإن حقائق التاريخ لا تترك أي مجال لمتشكك فقد بقي النص القرآني منذ أنزل كما تركه محمد ﷺ لم يطرأ عليه تحريف أو تبديل[٢٠].

أما السنة النبوية الصحيحة أي الموثوق بصحتها بعيدًا عن الأحاديث الضعيفة والمرويات غير الموثقة فهي الأصل الثاني للإسلام وتأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن وتتمثل في أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته.

وهي بالنسبة للقرآن الكريم بمثابة «تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره» كما يقول الإمام الشاطبي[٢١]، وقد أكد النبي على حجية هذين الأصلين اللذين يقوم عليهما الإسلام في قوله: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»[٢٢].

وعلى الذين يزعمون أنهم لا يعتمدون إلا على القرآن فقط لأن السنة في زعمهم مشكوك فيها أن يعيدوا قراءة القرآن الكريم الذي يؤكد على الأهمية البالغة للسنة النبوية في العديد من آياته، ومن ذلك قوله تعالى:

---

(٢٠) راجع ما كتبناه عن القرآن الكريم وما قاله المستشرقون عنه في كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري - ص ٧٧ - ٩٠ مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨ م.

(٢١) الموافقات جـ ٤ ص ١٢.

(٢٢) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل : ٤٤)

وقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(الحشر : ٧)

وقوله :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(النساء : ٨٠)

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم من آيات تؤكد على هذه المعاني التي نضعها أمام كل مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وهذا كله تأكيد قرآني - لا يجوز التشكيك فيه - على الأهمية البالغة لكل ما ورد عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات يجعل منها وحيًا بالمعنى لا باللفظ .

أما الفكر الإسلامي فهو اجتهادات المسلمين في مختلف مجالات العلوم والأمور الدينية والدنيوية ، وهي اجتهادات بشرية غير معصومة من الخطأ فهي عرضة للصواب والخطأ . ويعبر عن ذلك ما ورد عن الإمام الشافعي : « رأيُنا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب » فالفرق واضح وضوح الشمس بين الإسلام والفكر الإسلامي ، ولا يجوز الخلط بينهما . صحيح أن الفكر الإسلامي من شأنه أن يسترشد بتعاليم الإسلام

ويستضيء بنورها ويجتهد في فهم هذه التعاليم، ولكن ما ينتهي إليه من نتائج يبقى في إطاره الصحيح وهو الإطار البشري.

فإذا استقام هذا الفكر وأسهم في ازدهار العلوم في شتى مجالاتها دينية كانت أم دنيوية وأدى إلى قيام الحضارة وتقدم الأمة فإن ذلك يعني أن هذا الفكر يسير في الطريق الصحيح. أما إذا تقاعس وتوقف وأهمل العلم وركن إلى الاسترخاء والركود، كما هو حادث إلى حد كبير في العصر الحاضر، فإن هذا يعني أن هناك خللًا ما في مسار هذا الفكر يجب تلافيه. والخلل هنا خلل في الفكر نفسه وليس خللًا في تعاليم الإسلام. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الفكر في حركة دائمة متواصلة من شأنها أن تنتج أفكارًا جديدة تدفع إلى العمل والبناء. وقد توقف هذا المسار لدى المسلمين منذ قرون ـ كما هو معلوم ـ ويرجع ذلك في رأينا إلى أن نظرتهم للعلم في الأعم الأغلب قد تغيرت وانحصر اهتمامهم في العلم الديني الذي لم يشهد أيضًا أي تجديد يُذكر منذ ذلك الحين.

وعلى الرغم من الانهيار الحضاري الذي حل بالأمة الإسلامية فإن المسلمين يعتزون بتراثهم المجيد كل الاعتزاز، ويفخرون بما قدمته الحضارة الإسلامية من عطاء غير محدود للإنسانية بصفة عامة وللحضارة الأوروبية في العصور الوسطى بصفة خاصة. والتناقض في الموقف الإسلامي هنا واضح كل الوضوح، فمن المعروف أن الحضارة الإسلامية قامت على أساس من

التقدم العلمي في جميع مجالاته، وإذا كنا نعتز بحضارتنا التي قامت على العلم فكان الأجدر بنا أن نعتز أيضًا بالعلم الذي قامت عليه هذه الحضارة، ونواصل السير على نفس الدرب: «ولو كان خط التقدم ظل متصلًا منذ نهضتنا العلمية القديمة حتى اليوم لكنا قد سبقنا العالم كله في هذا المضمار إلى حد يستحيل معه أن يلحق بنا الآخرون»(٢٣).

وهذا التناقض هو الذي دفع جمال الدين الأفغاني ـ عندما أخبره شكيب أرسلان بأن العرب قد سبقوا الأوربيين في عبور الأطلنطي واكتشاف القارة الأمريكية ـ إلى القول: «إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان: كونوا بني آدم أجابوه: إن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ... إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم، قد كان آباؤكم رجالًا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم، أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»(٢٤).

ويستطيع أي باحث محايد أن يقرأ القرآن الكريم ويطلع على السنة النبوية ليرى ما يشتملان عليه من دوافع قوية حركت إرادة الأمة إلى بناء نهضة علمية مزدهرة قامت عليها الحضارة الإسلامية التي علَّمت الدنيا كلها في ذلك الوقت الذي كان فيه

---

(٢٣) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص٨ (مرجع سابق).

(٢٤) زعماء الإصلاح في العصر الحديث للأستاذ أحمد أمين ص ١٠٢ ـ دار الكتاب العربي بيروت.

العالـم يغط في نوم عميق من التخلف والجهل في عصر أطلقوا عليه مصطلح العصور الوسطى التي عرفت أيضًا بعصور الظلام. ولا تـزال التعاليم الإِسـلامية مؤهلة للقيام بنفس الدور بشـرط أن تسـتيقظ الأمة من سـباتها وتزيل عن كاهلهـا أثقال التقليد الأعمى الذي تسبب في شل حركتها عن النهوض حتى آلت إلى ما هي عليه الآن، والمطلوب من الأمة أن تنفض عن نفسها غبار الكسل وتتسلح بالإِرادة الصادقة والعزيمة القوية حتى تستطيع أن تغير من هذه الأوضاع المتخلفة التي تطوقها من كل جانب. والتغيير لا يأتي بمعجزة من السماء، وإنما بإِرادة الأمة وبعزائم روادها الذين يرتادون لها الطريق، وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

فالله سبحانه لا يساعد الكسالى أو المتواكلين، وقد خلق لنا الدنيا لنعمل فيها بجد ونشـاط حتى آخر لحظة في حياتنا حتى «إن قامت السـاعة وفي يد أحدكم فسـيلة فإِن اسـتطاع ألا يقوم حتى يغرسـها فليفعـل» (رواه أحمد في مسـنده، والبخاري في الأدب المفرد) كما ورد عن النبي ﷺ.

لقد طلب الله منا نحن البشر أن نعمر الأرض:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أي طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها، وهذا لا يتأتى

إلا بالعلـم والعمل ،كمـا أن القـرآن الكريم لم يضـع قيودًا ولا حدودًا تعوق البحث العلمي فالسماء والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة والتفكير .

وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية : ١٣)

فكل من يفكر ويبحث ويدرس ويتعمق في الدراسة ويواصل البحث سـيصل حتمًا إلى اكتشـاف الجديد بصـرف النظر عن دينـه أو لونه أو جنسـه ، وهـذا أمر قائم إلى قيام السـاعة ، وهذا ما ينبغي أن يستقر في أعماق كل مسلم غيور على دينه وأمته .

ويتضح لنا من كل ما سـبق أن الإسـلام بما يشتمل عليه من تعاليم دافعة إلى العلم والعمل والتقدم والحضارة بعيد كل البعد عما يلصقه به خصومه ظلمًا وعدوانًا من أنه السـبب في تخلف المسـلمين ، وفي هذا المعنى يقول مالك بـن نبي : إن التخلف الذي يعاني منه العالم الإسـلامي اليوم يعد عقوبة مسـتحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض السذج[٢٥] .

---

(٢٥) مشكلـة الأفكار في العالم الإسلامي لمالك بن نبـي ص ٧٦ هامش ١ ـ القاهرة ١٩٧١م .

٦- التجديد والاجتهاد

ولعلـه قد اتضح مما سـبق أن تخلف المسـلمين في العصر الحاضـر لا صلـة له بتعاليم الإِسـلام من ناحية، وأن الإِسـلام لا يرضـى لأتباعه هذا التخلف مـن ناحية أخرى. ومن أجل نهوض المسـلمين وتقدمهم ورقيهم وإزالـة أي لون من ألوان التخلف - دينيًا كان أم دنيويًا - نجد أن الإِسلام - كما هو معروف - قد جعل من طلب العلم فريضة على كل مسـلم ومسلمة، وأكد على دور العقل وحث على التفكير - كما سبقت الإِشارة إلى ذلك -.

ولكـن الركـود الحضـاري فـي الأمة الإِسـلامية أمـر واضح للعيان، ولا يسـتطيع أحد إنكاره، ولا يـزال التخلف في الفكر الدينـي والحضـاري يخيم علـى مجتماعتنا الإِسـلامية، فحتى اليـوم - ونحـن في العقد الثانـي من القرن الحادي والعشـرين - لا تزال نسـبة الأميـة الأبجدية في العالم الإِسـلامي تتراوح بين أربعيـن وخمسـين في المئة، وتزيد هذه النسـبة إلى سـتين في المئة بين النسـاء في عدد من الدول الإِسلامية[٢٦]، وذلك على الرغم من أن محمدًا ﷺ كان حريصًا كل الحرص على محو أمية المسـلمين منذ أكثر من أربعة عشـر قرنًا مـن الزمان، فقد كان يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا عَلَّم عشرة من أبناء المسلمين القـراءة والكتابة، وذلـك في الوقت الذي كان فيه المسـلمون

---

(٢٦) حسب تقديرات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)

في أشـد الحاجة إلـى المال، وكان المشـركون على اسـتعداد لبـذل المال الوفيـر نظير الإفراج عن أسـراهم. ولكن آفتنا أننا لا نزال نتصارع حول أمور شـكلية لا أهمية لها في الدين أو لها أهميـة ثانويـة وتركنا جوهر الدين، وقد أدى ذلك إلى التشـدد والإرهـاب في مختلف صوره من أجل فرض الرأي في العديد من البلاد الإسلامية.

وقد سـبق أن أشـرنا ـ عند حديثنا عن أزمة الفكر الإسـلامي ـ إلـى المحاولات الفاشـلة لإخراج الأمة من هـذا المأزق الراهن مـن جانـب المحافظين أو المتشـددين من ناحيـة، ومن جانب المتحررين أو التجديديين من ناحية أخرى، ونود هنا أن نحاول البحـث عن أسـباب المواقف التي يتشـبث بهـا كلا الجانبين المشار إليهما.

ولا شـك فـي أنه من قبيل التبسـيط المخـل إذا أرجعنا ذلك التوقـف الحضـاري الراهـن للأمة الإسـلامية إلى سـبب واحد فقط[٢٧] وإذا كنا لا نوافق على بعض المحاولات في هذا الصدد فإننـا هنا نريد أن نبحث عن سـبب عام قد يفسـر لنـا الخلفية الفكريـة لهذا التوقـف الحضـاري الراهن، ولعله يكشـف في

---

(٢٧) كمـا فعل بعض الباحثين الذين أرجعوا توقف الحضارة الإسلامية إلى الأخذ برأي الغـزالي في السببية بزعم أنه ينكر على العلم أسسه ويقـول هذا الباحث: «لقد سار المسلمـون وراء الغزالي فتأخروا علميا مما هو واقع أمام بصرنا» انظر: كتابنا مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ٨٧ ـ دار الفكر العربي ٢٠٠٣م (هامش١)

الوقت نفسه عن بعض الأسباب الجزئية أو الفرعية الأخرى.
ولا جدال في أن الأمية الأبجدية المنتشرة في العالم الإسلامي تعد أحد أهم أسباب التخلف في الأمة، ويضاف إلى ذلك شيوع التقليد الأعمى وإهمال دور العقل والعلم وغياب النقد الذاتي الذي له أهمية بالغة من أجل تصحيح المسار، وغير ذلك من أسباب.

ونعتقد أن هناك بجانب الأسباب المشار إليها سببًا عامًا مهمًا قد يفسر لنا مواقف هذين الفريقين المتباعدين، وهذا السبب يرجع -في رأينا- إلى سوء فهم كل فريق لحديث التجديد الوارد عن النبي ﷺ الذي يقول فيه: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَن يجدد لها دينها»[٢٨] فكلا الفريقين -على ما يبدو- لا يعترضان على صحة هذا الحديث ويقران بضرورة التجديد.

ولكن كلا منهما يفهم التجديد فهمًا مختلفًا تمامًا عن الآخر، فالفريق المحافظ يفهم التجديد في الحديث المشار إليه بأنه يعني إحياء السنة وإماتة البدعة، وأما الفريق الآخر فإنه يفهم التجديد هنا بأنه يعني التغيير.

وحقيقة الأمر أن فهم كل منهما قاصر عن إدراك جوهر التجديد الحقيقي المطلوب، فما يفهمه الفريق الأول غير

---

(٢٨) رواه أبو داود في سننه، وغيره (فيض القدير للمناوي جـ٢ ص ٢٨١ - دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

كاف؛ لأنه يغفل الحاضر والمستقبل، وفهم الفريق الثاني قاصر؛ لأنه أيضًا يغفل أن هناك ثوابت في الدين لا تتغير بتغير الأزمان.

وفي هذا الصدد يهمنا أن نبرز بعض الملاحظات المهمة:

● أولًا: إذا كان الفريق الأول يعتمد على الحديث النبوي الذي يقول: «خير الناس القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث»(٢٩) فإن حديث التجديد المشار إليه غير مرتبط بالوقوف عند زمن معين لا يجوز تجاوزه، فالتجديد بصفة عامة إذا كان يرتكز على قواعد أساسية في الماضي يجب مراعاتها وعدم تجاوزها فإنه من ناحية أخرى يعد ضرورة لإصلاح الحاضر واستشراف المستقبل، ومن هنا فإنه في حركة مستمرة «والتعيين بالقرن ليس المراد منه إلا أن التجديد ظاهرة اجتماعية مطردة ثابتة مكررة تكون على تطاول الزمن وعند حاجة الحياة إلى التقويم لغفلتها عن هدفها والانحراف عن غاية نشاطها»(٣٠).

● ثانيًا: من المهم جدًا ضرورة ربط التجديد بالاجتهاد، والاجتهاد - كما جاء في حديث النبي ﷺ عندما أراد أن يرسل معاذ بن جبل قاضيًا إلى اليمن - غير مرتبط بفترة زمنية معينة،

---

(٢٩) راجع فيض القدير جـ ٣ ص٤٧٨. وقد وردت فيه روايات أخرى اختلفت في ألفاظها وإن لم تختلف في المعنى المراد.

(٣٠) المجددون في الإسلام للشيخ أمين الخولي (الأعمال الكاملة - الجزء السابع ص ٢٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م)

ولم يكن المقصود به معاذ بن جبل وحده، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالاجتهاد هو الآلية المعتبرة والشرعية للتجديد، وهو مبدأ قائم إلى قيام الساعة، وليس من حق أحد أيًا كان غلق باب الاجتهاد أو تحديده بفترة زمنية سابقة بحجة أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن الأول لم يترك للآخر شيئًا، وينبغي أن يراعى أيضًا أن الاجتهاد ليس قاصرًا على قضايا الفقه الإسلامي، وإنما يمتد ليشمل جميع فروع العلوم الإسلامية، كما يشمل أيضًا كل القضايا الحياتية الدنيوية، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» (مسند أحمد)

● ثالثًا: أما إذا فهمنا التجديد بمعنى التغيير بصفة مطلقة فإن معنى ذلك عدم مراعاة ثوابت الدين التي هي ثوابت العقيدة، وهذا يعني تفريغ الدين من مضمونه، وهذا ما حدث بالفعل من جانب دعاة تاريخية أو تاريخانية النصوص الدينية.

● رابعًا: لا يزال مصطلح تجديد الفكر الإسلامي يثير لدى البعض حساسية مفرطة تدفعهم إلى الرفض ظنًا منهم أن هذا التجديد هو افتئات على الإسلام في عقائده وتشريعاته، وتذويب لخصائصه، وإخضاعه لمتغيرات كل عصر من العصور، على الرغم من أن كلمة التجديد هنا مضافة إلى الفكر وليس إلى الإسلام، ومن المعلوم أن الفكر بطبيعته متغير وفي حركة دائمة، ومن هنا فإن تخوف هذا البعض من مصطلح التجديد في الفكر الإسلامي يعد وهمًا من الأوهام.

ونــود أن نؤكد أن الخلاف في الرأي ـ من حيث المبدأ ـ ليس أمــرًا مقلقًا، بــل قد يكون فيــه إثراء للفكــر وتقريب لوجهات النظــر إذا صدقــت النوايــا وصحــت العزائم في ضــرورة التقاء الأطــراف المختلفــة علــى أرضيــة مشــتركة هي الوصــول إلى الحق ولا شــيء غير ذلك، والفكر الإسـلامي فيه مســاحة رحبة للتســامح، والبرهــان علــى ذلك مــا يؤكد عليه الشــيخ محمد عبده حين يقول: «لقد اشــتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحــكام دينهم أنــه إذا صدر قول من قائل يحتمــل الكفر من مئة وجــه، ويحتمل الإيمان مــن وجه واحد حمل علــى الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر»[٣١].

ولكــن المشــكلة فــي حقيقة الأمــر تتلخص ـ فــي رأينا ـ في افتقاد الشــعور بالثقة بالنفس وهيمنة التقليد للسابقين وانعدام تحكيــم العقل، وســوء الظن بالآخرين من جانــب مَنْ يمكن أن يطلق عليهم المحافظون، وشــيوع نبرة الاســتعلاء لدى الفريق الآخر الذي ينظر باســتخفاف إلى وجهــات النظر المخالفة لما يتبناه من مواقف.

ومــن هنا فــإذا أردنــا أن نتقــدم إلى الأمــام ونحطم الشــعور بانعدام الثقة بالنفس من جانب والشــعور بالاستعلاء من جانب آخــر والالتقاء على كلمة ســواء عن طريق الفكــر الصحيح فإن

---

(٣١) راجع: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٣ ـ دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ.

الأمر يتطلب التسلح بالشجاعة والإقدام الصادق نحو التوصل إلى الرأي الصحيح أو القريب من الرأي الصحيح، والشجاعة هنا ـ في رأي الشيخ محمد عبده ـ قسمان: «شجاعة في رفع القيد الذي هو التقليد الأعمى، وشجاعة في وضع القيد (الذي هو العقل) الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد أن يوزن به ويظهر رجحانه»[٣٢] ويمكن أن نضيف إلى ذلك قسمًا ثالثًا، وإن كان متضمنًا في القسم الثاني، وهو الشجاعة في الالتزام بالحق الذي يقرره العقل مهما كان مصدره بعيدًا عن الأهواء والنزعات والميول والرغبات من أي لون كان، ومن نافلة القول أن نؤكد أن: «الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له»[٣٣] ـ كما يقول ابن رشد ـ وصحيح المنقول في الإسلام موافق دائمًا لصريح المعقول ففرض التعارض بينهما باطل[٣٤].

---

(٣٢) انظر كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ١٥٣ ـ دار الفكر العربي ٢٠٠٣م.

(٣٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣٤) الإسلام والنصرانية (مرجع سابق ص٥٢ هامش ١).

الفصل الثاني

من مظاهر الجمود في الفكر الإسلامي المعاصر

- تمهيد

١- في مجال الدراسات الفقهية :

أولا : الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع .

ثانيا : قضايا في حاجة إلى اجتهاد جديد .

٢- في مجال الدراسات العقدية .

٣- في مجال التفسير وعلوم القرآن .

٤- في مجال الحديث النبوي .

٥- الفكر الإِسلامي والتيارات المعاصرة .

تمهيد:

إن مما لا يخفى على أي خبير جاد في مجال العلوم الإسلامية -وبصفة خاصة في العلوم ذات الطابع الديني البحت- أنها لم تتطور كثيرًا عما كانت عليه منذ قرون، ولا تزال تعيش «عصر الاجترار الثقافي» -إن صح التعبير- والاجترار هو إعادة الكلام مرارًا من غير الإتيان بشيء جديد. وقد قيل في ذلك: «لما أخذ العرب يجترون تراثهم نضب معين المعرفة عندهم»[٣٥].

وقد يصدم ذلك الكثيرين ممن يشتغلون بالدراسات الإسلامية بصفة عامة.

ولكن الحقيقة في أحيان كثيرة تكون مرة، فليس هناك في واقع الأمر تجديد في هذا المجال -إلا فيما ندر[٣٦]- ومعظم الدراسات التي تصدر في هذا المجال غالبًا ما تكون رسائل علمية تقدم للجامعات الإسلامية للحصول على ألقاب علمية، أو الحصول على ترقيات، ويغلب عليها طابع التقليد

---

(٣٥)) المعجم العربي الأساسي ص ٢٤٠. لاروس بيروت ١٩٩١م.

(٣٦)) هناك بعض المحاولات التجديدية في بعض العلوم التراثية مثل أصول الفقه، ولكنها لا تزال في مرحلة التخليق - إن صح التعبير- (راجع د/ علي جمعة في بحثه عن: تجديد أصول الفقه. في مجلد تجديد الفكر الإسلامي -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ٢٠٠٩م ص ٣٣١-٣٦٠)، وفي مجال اللغة العربية كانت هناك محاولة جيدة لتنقية النحو من التعقيد قام بها الأستاذ إبراهيم مصطفى في ثلاثينيات القرن الماضي في كتابه (إحياء النحو) وقدم له الدكتور طه حسين حينما كان عميدا لكلية الآداب، وأوصى وزارة المعارف باقتناء الكتاب في مكتبات مدارسها، ليطلع عليها المعلمون (صحيفة المصري اليوم ١٤/٢/٢٠١٤م)

والاجترار، أي أنها تجتر مما سبقها من دراسات أو كتب تراثية دون أي إضافة ذات قيمة للعلم تشفي الباحث المتطلع لآفاق معرفية جديدة. ويحاول أصحاب الدراسات الجامعية تعويض ما فيها من قصور علمي بالكثير من الحشو الذي يجعلها متضخمة الحجم، ولكن هذه محاولات فاشلة لا تستطيع أن تخفي ما بها من عوار علمي.

وقد سبق أن رفض الشيخ محمد عبده التقليد بكل أشكاله وصوره، فالتقليد ضلال يعذر فيه الحيوان، ولكنه لا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز، إذ يُعد بمثابة إلغاء للعقل وقضاء على شخصية الفرد وكبت لقدرته وامتهان لكرامته، وقد ضرب الشيخ محمد عبده العديد من الأمثلة للتقليد المرفوض، ومن ذلك -على سبيل المثال- نقده لفقهاء عصره حيث يقول:

«جعل الفقهاء كتبهم هذه على علاتها أساس الدين، ولم يخجلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة»[٣٧].

وفي المقابل نجد هناك تجاهلا - قد يكون تامًّا ومتعمدًا

(٣٧)) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. تحقيق د/ محمد عمارة جـ٣ ص ١٥٩ - بيروت ١٩٨٠م.

- للكثيــر من القضايا المعاصرة، فإذا كان ولا بد من التصدي لها، فما علينــا إلا البحث في كتب المذاهب الفقهية المعروفة لاســتخراج الــرأي الذي غالبًا مــا يكون بعيدًا تمامًــا عن الواقع المعاصــر، وهــذا ما حــدث بالفعل - علــى ســبيل المثال «في قضية اشــتغال المرأة بالقضاء» - كما سبق أن أشرنا في موضع آخــر - وذلك دون إجراء أي دراســات حديثة عن أوضاع المرأة فــي العصــر الحاضر ومــا وصلت إليــه من علم ومعرفــة في كل التخصصات العلمية وفي التجارب والخبرات الحياتية، ومقارنة ذلك بأوضاع المرأة في عصر نشــأة المذاهب الفقهية منذ أكثر مــن ألف عام حتى يمكن التوصــل إلى الرأي الصحيح بعيدًا عن أي تقليد، وهذا ما يمليه العقل السليم وصحيح الدين وما يتفق مع مبدأ الاجتهاد الإسلامي.

ولا ننكر أن هناك قلة من المشــتغلين بالدراســات الإسلامية - وبخاصة في مجال الدراسات الفقهية - يحاولون البحث عن حلول للمشــكلات المعاصرة باجتهاد جديد مبني على أســس موضوعيــة، ولكن هــذه القلة النادرة - كما ســبق أن أشــرنا - والنــادر لا حكم له، وذلك فضلا عن أنها تتعرض لهجوم عنيف من جانب التيار التقليدي الغالب والرافض لأي تجديد[٣٨].

(٣٨) ومن ذلك على سبيل المثال فتوى الإمام الأكبر شلتوت ومن بعده الشيخ طنطاوي رحمهمــا الله فيما يتعلق بمعاملات البنــوك وصناديق الادخار، وما تعرضا له من نقد لاذع وصل أحيانا إلى حد الاتهام بالخضوع لإملاءات السلطة الحاكمة.

وإذا كان هذا هو الواقع المر بما يشتمل عليه من جمود فكري عقيم فإن الضرورة تقتضي تجاوز هذا الواقع تلبية لمتطلبات العصر، فالإسلام دين للحياة بكل أبعادها، ولا يجوز أن نخضعه لتخوفات مزعومة من جانب الرافضين لأي تجديد، ولنا في الإمام الشافعي -رحمه الله- نموذجًا يُحتذى به، فقد كان رائدًا ومجددًا في الفقه الإسلامي، أما أنه كان رائدًا فلأنه من ناحية مؤسس المذهب الفقهي الذي عُرف بعد ذلك بالمذهب الشافعي، ومن ناحية أخرى كان – بلا منازع – أول من أسس علم أصول الفقه، وأما أنه مجدد، بل لعله أول المجددين في الفقه الإسلامي، فقد ظهر ذلك واضحًا جليا في تجديد مذهبه بعد أن استقر به المقام في مصر، كما أنه قد جدد أيضًا في «الرسالة» بل أعاد تصنيفها من جديد في مصر – كما يقول الفخر الرازي-[39].

وفي الصفحات التالية نعرض بعض الأفكار التي تتوارد على الذهن في هذا المقام بقصد تنشيط الفكر الإسلامي وتجديده عسى أن يكون فيها بعض النفع وأن يكون لها مردود إيجابي لدى المهتمين بقضايا الفكر الإسلامي بصفة عامة والمشتغلين بالعلوم الإسلامية بصفة خاصة.

---

(٣٩) تجديد الفكر الإسلامي (مرجع سابق) ص٨٨١.

١- في مجال الدراسات الفقهية:-

أولا: الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع:

من المأثورات النبوية التي يعرفها طلاب الكليات الدينية قصة معاذ بن جبل عندما أرسله النبي ﷺ قاضيا إلى اليمن، فقد سأله: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، أي لا أقصر. فأثنى الرسول على معاذ، ويروى أنه قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله[٤٠].

ومن المعروف أن النصوص التي يرجع إليها الفقهاء محدودة، ولكن وقائع الحياة ومستجدات كل عصر لا تنتهي، من أجل ذلك فإن إنزال النصوص على واقع الحياة يتطلب عقلاً راجحًا وأفقًا واسعًا وفقهًا واعيًا، وقد أدرك علماء الأمة وفقهاؤها ذلك جيدًا منذ الصدر الأول للإسلام، وأعملوا عقولهم في فهم النصوص من جانب، وفي إنزالها على واقع الحياة من جانب آخر، والتمكن من هذين الجانبين يُعد أمرًا ضروريًا للتوصل إلى رأي فقهي سديد.

وعلى هذا الأساس انفتح الباب واسعًا أمام المجتهدين الذين قاموا بمهمتهم على خير وجه، ونظرًا لأن العقول تتفاوت

---

(٤٠) رواه أبو داود في سننه.

والأفهام تختلف في إدراكها وتصوراتها كان من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في الآراء بين المجتهدين على مر العصور، ومن هنا نشأت مذاهب الفقه الإسلامي المتعددة، وكان في ذلك تيسير على جمهور المسلمين، وانتشرت بينهم العبارة المشهورة «اختلافهم رحمة».

وليس هناك حرج من أن يتخير المرء ما تطمئن إليه نفسه من الآراء المتعددة للفقهاء في المسألة الواحدة، فالأمر في النهاية متروك لهذا الاطمئنان القلبي الذي عبر عنه الرسول بقوله: «استفت قلبك»[41].

وهكذا كان مبدأ الاجتهاد فتحًا جديدًا في تاريخ التشريع الإسلامي، وهذا ما جعل المفكر الإسلامي المعروف محمد إقبال يصف الاجتهاد بأنه مبدأ الحركة في الإسلام، وتشجيعًا من الإسلام على ممارسة الاجتهاد في المجتمع الإسلامي قرر النبي ﷺ أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران[42].

والاجتهاد في الإسلام مبدأ مستمر على مدى الأزمان، وليس خاصًا بفترة زمنية معينة - كما سبق أن أشرنا - والفقهاء في كل العصور مطالبون بالاجتهاد دون توقف. وإذا كان صاحب

---

(٤١) رواه الدارمي في سننه.

(٤٢) رواه مسلم في صحيحه ونصه: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

الشــريعة قد فتح للأمة باب الاجتهاد علــى مصراعيه فليس من حــق أحد كائنًا مَن كان أن يغلق هــذا الباب، فإغلاقه يعد إغلاقًا لرحمــة الله، وإغلاقًــا للعقــول ومصــادرة على حقها فــي الفهم والتفكيــر، وهذا يعنــي ترك الأمــور للتقليد: تقليد الأســلاف فيمــا توصلوا إليه مــن فهم كان ملائمًا تمامًــا لعصورهم وملبيًا لحاجاتهم.

ومــن الحقائق التي لا مراء فيهــا أن الحياة متجددة فالتجديد ســنة الحياة وقانــون الوجود، ولا يوجد شــيء يبقى على حاله، فحتى خلايا جســم الإنســان تتجــدد بصفة مســتمرة، وقد أراد الإســلام لنا أن نمــارس الاجتهاد لنواكب متغيــرات كل عصر، ونحن نعلم أن الإمام الشافعي عندما جاء إلى مصر واستقر فيها بــدأ يعيد النظر في الآراء والفتــاوى التي قال بها حينما كان في بغداد؛ لأن الفتوى يجب أن تراعي أعراف كل قطر من الأقطار، وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين: «من أفتى الناس بمجرد النقول من الكتب على اختلاف أعرافهم وعوائدهــم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين»[٤٣].

وفي هذا الصدد أيضًا يقول الإمام القرافي في كتابه الإحكام: «ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مستفت لا يعلم أنه من أهل البلد

(٤٣)) إعلام الموقعين – ٣/٧٨.

الــذي منه المفتي وموضع الفتيــا ألا يفتيه بما عادته أن يفتي به حتى يســأله عن أهل بلده، وهل حدث لهم عرف في ذلك البلد في هذا اللفظ اللغوي أم لا»[٤٤].

ولكننا – للأسف الشــديد – تركنا الاجتهاد ولجأنا للتقليد فــي وقت نحن أحــوج ما نكون فيــه إلى الاجتهاد مــن أي وقت مضى، والملاحظ أنه حتى يومنا هذا نجد فقهاءنا حين يبحثون عن حل شــرعي لمشكلة جديدة فإنهم يبحثون عن حل لها لدى بعــض المذاهب الفقهيــة القديمة وفي بطون الكتــب التي أُلِّف الكثير منها في عصور التراجع الحضاري للأمة الإسلامية.

ومنذ أكثر من قرن من الزمان عاب الشــيخ محمد عبده على الفقهــاء مســلكهم هــذا وتمســكهم الحرفي بما جــاء في هذه الكتب على الرغم من اختلاف ظروف الزمان والمكان[٤٥].

فهــل يعقــل أن تكــون الحلــول التي توصــل إليهــا الفقهاء الســابقون – مــع احترامنــا لاجتهاداتهــم التــي كانت مناســبة لعصورهم – هي نفس الحلول لمشكلاتنا المعاصرة؟

إن الأمر الذي لا شك فيه أن الفقهاء السابقين – الذين أثروا الحياة الفقهية منذ قرون طويلة – لو قُدِّر لهم أن يُبعثوا من جديد ويــروا ما طرأ على الحياة والأحياء فــي أزماننا من تطورات غير مســبوقة لتغيرت بالقطع نظراتهم للأمور ولكانت لهم وجهات

---

(٤٤)) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للإمام القرافي ص ٣٢٣.

(٤٥) راجع ما قاله الشيخ محمد عبده في هذا الصدد صـ٤٧.

نظـر متجددة أكثر تطـورًا وأكثر فهمًا لمســتجدات العصر من كثير من فقهائنا المعاصرين.

وهناك أمثلة عديدة على شــيوع التقليد – للأسف الشديد – لـدى الكثيرين من فقهائنا، وبخاصة مَن يتصدون منهم للفتوى إلـى الحد الذي يصل إلى إلغـاء عقولنا تمامًا وإلغاء وظيفتها في التفكير، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما سبق أن أشرنا إليه بشأن قضية اشتغال المرأة بالقضاء[٤٦].

والأمـر الـذي لا شـك فيـه أن آراء الفقهاء السـابقين كانت وسـتظل مجرد اجتهـادات تخطئ وتصيب، ولم يدع مؤسســو المذاهب الفقهية أبدا أن ما يقولونه هو الحق المطلق، فقد قيل للإمـام أبـي حنيفة: إن هذا الذي تفتي به هـو الحق لا مراء فيه، فرد قائـلا: لا أدري، لعله الباطل الذي لا مراء فيه، ومن المأثور أيضا عن الإمام الشافعي قوله: «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

والسـؤال هـو: أين نحـن من فقـه الواقع الغائب عـن أذهان الكثيـر من فقهائنا؟ وأين نحن من فهـم الواقع الحالي للمرأة؟ وهل المرأة اليوم هي نفس المرأة التي كانت في عهد مؤسســي المذاهب الفقهية؟ وأين الاجتهاد المتجدد الذي فتح بابه واسعا

---

(٤٦) نشرت الصحف في الفترة الأخيرة (يناير ٢٠١٤م) أن مجلس الدولة يرفض تعيين المرأة في منصب القاضي في مجلس الدولة، ولعل هذا الرفض يعتمد على فتوى الفقهاء التي ترفض اشتغـال المرأة بالقضاء مطلقا لدى الشافعيـة والمالكية والحنابلة، أما بعض الحنفية فيجيزون اشتغالها في القضاء في الأحوال المدنية فقط.

صاحب الشـريعة؟ وأين نحن من فهم مقاصد الشـريعة وجوهر الدين؟ وإلى متى سنظل عالة على فقهائنا الأقدمين؟

وفي مثال آخر دار البحث حول ختان الإناث الذي هو مجرد عادة وليس عبادة، وأن ما ورد بشأنه من أحاديث كلها ضعيفة لا تقيم حجة ولا يعتد بها، ولكن أحد الشيوخ الأجلاء عندما بحث هذه القضية لجأ إلى البحث في ذلك عما قاله السابقون وانتهى في ختام بحثه إلى نتيجة مروعة مرددا في هذا الصدد ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية من رأي يقول: «لو اتفق أهل بلد على عدم ختان الإناث فعلى الإمام أن يقاتلهم على ذلك».

وقد تحدثت مع شيخنا الجليل -رحمه الله وطيب ثراه- عن ضرورة الاجتهاد وعدم الوقوف عند ما قاله السابقون فكان رده: عندما نكون مثلهم في علمهم يحق لنا الاجتهاد. وهذا أمر غير قائم في عصرنا.

وأترك الرد على ذلك للشيخ محمد عبده -رحمه الله- فمن رأيه أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا معليا لعقول على عقول، فالسابق واللاحق يستويان في التمييز والفطرة وهناك إمكانات متوفرة أمام اللاحق ولم تكن متاحة لمن سبقهم: «فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه»[٤٧].

---

(٤٧) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده – تحقيق محمود أبو رية ص ١٥٤ ط٤ دار المعارف. راجع أيضا كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ١٤٨.

إن الاجتهاد في عصرنا الحاضر هو الفريضة الغائبة، وممارسة الاجتهاد أصبح فرض عين على كل من لديه المؤهلات لذلك. ولدينا الكثير من الفقهاء المؤهلين للاجتهاد، ولكنهم في حاجة إلى الشجاعة مرتين. كما يرى الشيخ محمد عبده أيضا -فيما نقلناه عنه عند حديثنا عن التجديد والاجتهاد- : الشجاعة في رفع قيد التقليد، والشجاعة في وضع قيد العقل الإنساني -الذي هو ميزان الله في أرضه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي- للانطلاق إلى آفاق التقدم والارتقاء، وليس فقط على مستوى الفكر الديني، بل على مستوى الفكر بصفة عامة وعلى مستوى تطوير حياتنا وتعمير دنيانا وإسعاد أجيالنا في الحاضر والمستقبل.

ثانيا: قضايا في حاجة إلى اجتهاد جديد:

لقد أصبح من الضروري في عصرنا الحاضر أن تشتمل قائمة الأولويات في مجال الدراسة الفقهية على تركيز الاهتمام بفقه الواقع وفقه الأولويات[٤٨] وفقه المقاصد وفقه الأقليات الإسلامية والفقه السياسي الذي لم يأخذ حظه من العناية من جانب فقهائنا السابقين، وفي هذا الصدد نرى أنه قد أصبح

---

(٤٨) يقول ابن القيم: «نوعان من الفقه لابد للحاكم منهما: فقه في الحوادث الكلية وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس يميز به الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطي الواقع حكمه من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفا للواقع» (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن القيم ص٤ ط، دار الكتب العلمية بيروت).

من الضروري أيضا إعادة بحث قضيتين قد أصبحتا اليوم على جانب كبير من الأهمية، وهما قضية الجهاد وقضية الخلافة.

أما القضية الأولى فقد أثير حولها في الفترة الأخيرة لغط كثير، وظهرت فتاوى تحض على الجهاد لا من أجل تخليص المسجد الأقصى من يد الصهاينة، الذين دنسوا ساحته يوميا، ويسعون جاهدين لتهويد مدينة القدس، والاستيلاء على كل شبر فيها، وإنما تنصب الدعوة إلى الجهاد ضد فريق أو جيش من المسلمين لخلافات سياسية لا صلة لها بجوهر الدين، ومن الأمور المضحكات المبكيات في الوقت نفسه أنه قد وصل الأمر ببعض المفتين إلى الدعوة إلى جهاد النكاح، وذهبت فتيات كثيرات من بعض البلاد العربية بدافع الفقر إلى سوريا استجابة لهذه الفتوى لإشباع غرائز المجاهدين هناك، وعدن إلى بلادهن بعد أن حملن سفاحا بحجة الجهاد، وقد نشرت وسائل الإعلام المختلفة محلية وعالمية في صيف عام ٢٠١٣م أخبار هذه الفضائح التي لم تعد تخفى على أحد، ووصل الأمر إلى نقاش حول جهاد النكاح في مجلس الأمن الدولي بين سفيري قطر وسوريا في الجلسة المفتوحة لمناقشة ملف المرأة في النزاعات المسلحة[٤٩].

فهل هذا هو الإسلام الذي يراد تقديمه إلى عالمنا المعاصر؟

---

(٤٩)صحيفة الوفد وصحيفة المصري اليوم في ٢٠١٣/١٠/٢١م.

لقد أكد القرآن الكريم الكرامة لكل أبناء آدم رجالا ونساء وحرمة إراقة دم أي مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وجعل حماية النفس وصيانة الأعراض على رأس مقاصد الشريعة الإسلامية.

أما القضية الثانية المهمة فهي قضية الخلافة، ونعتقد أنه قد أصبح من الضروري بحث هذه القضية بعيدا عن الجدل الذي ثار حولها عقب سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، وبعيدا أيضا عن الجدل السياسي الذي يثور حولها في الوقت الراهن، فالمطلوب هو بحث هذه القضية في ضوء متغيرات العصر بأوسع معاني وأبعاد هذا التغيير، وإذا كان الهدف من الخلافة بصفة عامة هو العمل على وحدة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم فيما بينهم في كل ما من شأنه أن يحقق لهم العزة والمنعة والأمن والأمان تحت مظلة واحدة فإن السؤال هو: هل تحقيق هذا الهدف لا يكون إلا من خلال الصيغة التقليدية المتوارثة منذ خلافة أبي بكر -رضي الله عنه- حتى سقوط الخلافة العثمانية منذ تسعة عقود؟ أم أن هناك في هذا الصدد مساحة من الحرية تتيح البحث عن صيغة أخرى بديلة يمكن أن تحقق الهدف المنشود على نحو أفضل من ذي قبل، ويمكن أن تتوافق عليها إرادة الشعوب الإسلامية في ضوء متغيرات العصر؟

إن الإجابة الصحيحة عن ذلك تتطلب أولا إجراء دراسة علمية موضوعية نقدية عن الخلافة الإسلامية في مراحلها المختلفة،

تعتمد على ثوابت الإِسلام من ناحية، وعلى حقائق التاريخ من ناحية ثانية، وعلى متغيرات العصر من ناحية ثالثة، فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم الذي أصبح من التعقيد على جميع المستويات على نحو لم يكن يخطر على بال أحد.

إن من المعلوم أن الخلافة الراشدة قد تحققت في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة مضافا إليهم عمر بن عبد العزيز، ثم أصبحت ملكا عضوضًا بكل إيجابياته وسلبياته التي يعرفها التاريخ، والأمر اللافت للنظر أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة وهم -على التوالي: عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - علي بن أبي طالب- قد اغتيلوا وقتلوا ظلما وعدوانا، وهذا أمر من شأنه أن يضع علامات استفهام كبيرة لهذه الظاهرة المبكرة في تاريخ الإِسلام، فقد اشتهر هؤلاء الخلفاء بالصلاح والتقوى والعدل، ومن هنا فإِن مثل هذه المؤامرات في هذا الوقت المبكر بعد وفاة النبي ﷺ تعد أمرا يدعو إلى الدهشة والغرابة، وإذا عرفنا أن الشيعة أو كثيرين منهم يهتمون بأبي لؤلؤة المجوسي الذي اغتال عمر بن الخطاب؛ لأن عمر - في زعمهم- قد اغتصب الخلافة من عليّ بن أبي طالب، فإِن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ما قام به أبو لؤلؤة من اغتيال لعمر بن الخطاب كان عملا فرديا أم أن أبا لؤلؤة كان مجرد أداة في يد آخرين؟.

وطرح هذا السؤال لا يعني بالضرورة أننا نوجه اتهاما صريحا

لجهة معينة، وإنما نريد أن نلفت النظر إلى أن هذا الموضوع قد يكون في حاجة إلى دراسة جادة تكشف لنا بعض الغموض الذي يحيط بهذا الحادث.

وبالتوازي مع الدراسة النقدية المطلوبة عن الخلافة في مراحلها المختلفة، فإنه لا بأس من دراسة الصيغ الجديدة التي توصلت إليها أمم أخرى في عصرنا الحاضر والتعرف على إيجابياتها وسلبياتها، ومدى تحقيقها للهدف المنشود ومدى ملاءمتها في خطوطها العريضة للتطبيق العلمي في العالم الإسلامي.

ويحضرني في هذا المقام تجربة الاتحاد الأوربي الذي استطاع رغم عمره القصير أن يضم تحت مظلته ثمانيًا وعشرين دولة أوروبية حتى الآن، وهي دول مختلفة القوميات واللغات، ونجح في إلغاء الحواجز بين هذه الدول، وأصبح المواطنون فيها يتمتعون بحرية التنقل والعمل والتجارة في دول الاتحاد التي أصبح لها عملة موحدة هي اليورو، الذي ينافس الآن أقوى عملات العالم وهي الدولار. وتشترك أوروبا مع الولايات المتحدة الأمريكية في أقوى تحالف عسكري في العالم وهو حلف الناتو الذي تشترك فيه تركيا أيضا بوصفها دولة تنتمي إلى القارة الأوروبية، وتأمل أن تنضم إلى الاتحاد الأوروبي الذي يتحفظ حتى الآن على قبولها عضوا فيه لأنها دولة إسلامية، والاتحاد الأوروبي -كما قال بعض السياسيين الكبار فيه وهو

المستشار الألماني السابق هلموت كول- يعد ناديا مسيحيا لا مكان فيه لبلد إسلامي.

لقد اهتم التجديد المعاصر بموضوع الاقتصاد الإسلامي، وعلى الرغم من هذا الاهتمام ظلت قضية التعامل مع البنوك دون حسم. فهناك فريق يميل إلى التحريم أخذا بالأحوط، وهناك فريق آخر قطع أشواطا في هذا الصدد تتجه نحو الجواز والإباحة. والمطلوب هو إعادة الدراسة مرة أخرى على نحو أكثر عمقا مع مراعاة متغيرات العصر دون التفريط بطبيعة الحال في ثوابت الإسلام، إن الشريعة الإسلامية هدفها التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، والمسألة في ضوء ذلك في حاجة إلى الحسم.

لقد اجتهد المرحوم الشيخ شلتوت ورأى أن هذه معاملات لم يعرفها السابقون من الفقهاء. ومن هنا فإنه لا حاجة إلى اجتهاد جديد، وأفتى برأيه في هذا الصدد في فتوى معروفة ثابتة في كتابه (الفتاوى)[٥٠] لم يتراجع عنها كما يروج لذلك بعض المعارضين لهذه الفتوى، كما اجتهد المرحوم الشيخ طنطاوي في هذه المسألة وعقد -من أجل المزيد من البحث والاستقصاء حول هذه القضية- اجتماعات استمرت شهورا عديدة مع خبراء البنوك، وكنت شخصيا أحد الشهود

---

(٥٠) راجع الفتاوى للشيخ شلتوت ص٣٥١، ٣٥٢- دار الشروق- ط١٦، ١٩٩١م.

على بعض هذه الاجتماعات، وانتهى الشيخ في ضوء ذلك كله إلى رأيه المعروف الذي شرحه في كتابه عن معاملات البنوك، وقبله بحث هذه القضية الشيخ علي الخفيف، وغيره من الأئمة الأعلام. وقد سمعت من المرحوم الشيخ محمد الغزالي ثناءً على كتاب الشيخ طنطاوي المشار إليه، وحتى لا يترك الناس حيارى بين الفتاوى المتضادة فإن هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف مسئولة عن حسم هذه القضية.

والمطلوب أيضا أن يكون الفقه الإسلامي المعاصر سباقا إلى استكشاف المسائل المستجدة ووضع الحلول لها، وأن تكون البحوث الفقهية على صلة أيضا بالتطورات العلمية الحديثة وبخاصة في المجالات الطبية مما له صلة مباشرة أو غير مباشرة بمعرفة الرأي الشرعي في كل جديد(٥١).

إننا اليوم في عصر الاستنساخ الجزئي والكلي الذي تم في عالم الحيوان بنجاح، ولا يستبعد أن يحدث ذلك قريبا في عالم الإنسان، فالعلماء المتخصصون في العالم يواصلون أبحاثهم في هذا المجال. وهناك مسائل لا حصر لها في قضايا تأجير الأرحام(٥٢) واختلاط الأنساب. ومن أمثلة ذلك ما تحقق بالفعل

(٥١) أود في هذا الصدد أن أشير بالتقدير إلى الجهد الذي بذله الزميل أ.د/ رأفت عثمان في موضوع الجينوم والخلايا الجذعية من المنظور الشرعي. ولعل هذا يكون أول الغيث.

(٥٢) لقد خصصت قناة القاهرة والناس حلقة تليفزيونية في ١٠/ ١١/ ٢٠١٣م لمناقشة قضية تأجير الأرحام. وكان من بين المشاركات في هذه الحلقة سيدة فقيرة متزوجة –ولديها أطفال ثلاثة– قالت إنه قد عرض عليها خمسون ألف جنيه في مقابل أن تحمل بدلا من سيدة =

على أرض الواقع ؛ ففي أحد البلاد الأوروبية تطوعت سيدة لا تزال قادرة على الإنجاب لمساعدة ابنتها التي لا تستطيع الإنجاب في أن تحمل بدلا منها ، وأجريت لها عملية زرع البويضة التي تخص البنت وزوجها في رحم الأم ، وحملت بالفعل وأنجبت طفلا هي أمه من ناحية وفي الوقت نفسه هي جدته ، كما أن أمه الحقيقية هي في الوقت نفسه أخته .

وقد أذاعت بعض وسائل الإعلام الغربية أن بريطانيا قد بدأت خطواتها الأولى لتصبح الدولة الأولى في العالم التي تسمح بتقنية IVF لتخصيب أجنة باستعمال الحمض النووي DNA من ثلاثة أشخاص مما قد يجعل للطفل ثلاثة آباء . وينتظر أن تطبق هذه التجربة مع نهاية العام الحالي ، على أن تصدر بذلك تشريعات لتطبيق التجربة التي يقال إنها تحمي الجنين من بعض الأمراض الوراثية . (عن : CNN في ٣٠ / ٦ / ٢٠١٣م)

وإذا كانت هذه قضايا تستحق البحث في ضوء الشريعة الإسلامية فهناك قضايا تعد هامشية ، يسأل عنها الناس من حيث الجواز أو التحريم مثل استخدام فرشاة الأسنان بديلا عن السواك وأوراق التواليت بديلا عن الحجارة وغيرها .

=ثرية لا تنجب. وبعد أن وافقت في البداية تحت ضغط ظروف أسرتها المادية الصعبة عادت ورفضت هذا العرض بعد أن قيل لها: إن ذلك حرام شرعا، ولكن سيدة أخرى أرملة قالت إنها بصدد عقد اتفاق مع إحدى السيدات لتقوم بالحمل بدلا منها نظير مبلغ مالي، وأحضرت معها فتوى مكتوبة من المرحوم الدكتور عبد المعطي بيومي بأن تأجير الأرحام ليس حراما قياسا على تأجير المرضعات وأنه لا صلة له بالزنا، وقرأ مقدم البرنامج نص الفتوى.

وإذا قلنـا : إن الفقــه الإِســلامي ينبغــي أن يكون ســباقا إلى اكتشــاف المسائل المستجدة وإبداء الرأي الشرعي فيها، فإِني أود أن أشــير إلــى ما يشــتمل عليه الفقه الإِســلامي من مســائل افتراضيــة ربما تعــد من قبيل المســتحيلات، ومــن أمثلة ذلك المســألة التاليــة : إذا ولدت بقرة كائنا على هيئة إنســان وتعلّم وحفـظ القــرآن وتفقه في الديــن وخطب في النــاس خطبة عيد الأضحى بعد أن صلى بهم إمامًا، فهل يجوز التضحية به بوصفه ابن بقرة[٥٣]، وغير ذلك من أمثلة كثيرة مشابهة[٥٤].

وكنا ونحن طلاب في المراحل الأولى من التعليم الأزهري لا نأخذ هذه المســائل الافتراضية علــى محمل الجد، بل من قبيل الفكاهــة. ولكــن بعد التأمل فيهــا أعتقد أن فقهاءنا الســابقين الذين شغلوا أنفسهم بالمسائل الافتراضية -التي قد يعد بعضها مــن قبيل الخيال العلمــي- كانوا قد انتهوا من بحث المســائل المثارة والملحة. ولكنهم رأوا ضرورة اســتمرار تدريب الملكة الفقهية حتى تكون حية وحاضرة دائمًا ومســتعدة لبحث كل ما يستجد من مسائل.

---

(٥٣) وقــد نشرت بعض الصحف المصرية في الفترة الأخيرة (ديسمبر ٢٠١٣م) خبرًا من الهند يقول: إن هناك عنزة قد ولدت جنينا على هيئة إنسان في ملامح وجهه وأصابعه.. إلخ، وقد مات الجنين بعد الولادة.

(٥٤) ومــن أمثلة ذلك: هل يجوز للمتزوج من أربعة أن يتزوج الخامسة إذا كانت جنية؟ وهل يحسب الجن من أفراد نصاب صلاة الجمعة؟ (دراسات في تفسير النص القرآني ج٢ ص٢٩٢- بيروت ٢٠١٠م)

٢- في مجال الدراسات العقدية:

أما في مجال علوم العقيدة فمن المعروف أن مهمة علم الكلام الأصلية هي الدفاع عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية والرد على أصحاب النزعات الإلحادية. ولا شك في أن دراسة كتب التراث المعتبرة في مجال علم الكلام تكسب الدارسين دربة ذهنية ومرانا عقليا. ولكن هناك بعض الأسئلة التي يطرحها البعض في هذا الصدد، وربما يكون من المفيد الاشتغال بالإجابة عنها إجابة تشفي صدور وعقول المتعطشين للاستزادة من العلم والمعرفة، ومن هذه الأسئلة:

- ما صلة هذه الدراسة بالواقع المعيش؟
- هل إذا أراد أجنبي غير مسلم أن يتعرف على الإسلام بقصد اعتناقه أن يجد في هذه المصادر ضالته المنشودة؟

وبعبارة أخرى: هل يمكن لهذه المصادر أن تنشئ لدى غير المسلم عقيدة لم تكن موجودة لديه، أن تنمي عقيدة قائمة أو تدافع عنها وترد كيد الكائدين؟

لقد كان الطلاب حتى وقت قريب في دراستهم للعقائد النسفية يمضون أكثر من شهرين في دراسة عبارة واحدة هي: (حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية) فهل كان في ذلك ما يزيد على الدربة الذهنية والمران العقلي؟

ومن المعتاد أيضا أن نلقن طلابنا أن القِدم صفة من صفات الله في حين أن القرآن الكريم لم يذكر هذه الصفة إلا في موضعين لا صلة لهما بالألوهية وهما:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(يس : ٣٩)

﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(يوسف : ٩٥)

وبدلا من ذلك يستخدم القرآن الكريم مصطلحا آخر ، فالله :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ ﴾

(الحديد : ٣)

فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء . فهل هناك مبرر معقول لمخالفة هذا المصطلح القرآني ؟

وحتى لا يفهم كلامي على غير وجهه الصحيح أود أن أقرر -في وضوح تام- أنني لا أقصد التقليل من شأن المصادر الأصلية في علم العقيدة ولا في غيرها من العلوم الإسلامية ، والتي أفنى علماؤنا السابقون أعمارهم في تأليفها ، كما لا أنادي بإلغاء دراسة هذه المؤلفات ، فهذا لا يقول به عاقل . ولكنني أود أن أشير إلى أنه لا يجوز لنا أن نقف عند هذا الحد ، فالواجب علينا أن نقوم بتطوير علم العقيدة بما يفيد العقيدة ويفيد المجتمع في الوقت نفسه ، وبما يعمل حقيقة على تثبيت العقيدة لدى المؤمنين وحماية هذه العقيدة وتحصينها ضد أسلحة العصر الفكرية التي لم يعرفها السابقون . وبعبارة أخرى لا بد أن يطال التجديد هذا العلم ليكون أكثر فاعلية وأكثر فائدة للعامة والخاصة على السواء ، فالهدف من التجديد المقصود ليس

إلغاء علم الكلام، وإنما ضرورة العمل على تفعيل دور هذا العلم والتسلح بأسلحة العصر الفكرية حتى يكون قادرا على مواجهة الواقع المعاصر الذي يختلف اختلافا واضحا عما عرفه علماؤنا السابقون، فلكل عصر ظروفه، وهذا ما دعا ابن خلدون إلى القول بأن عصره ليس في حاجة إلى علم الكلام نظرا لانتفاء وجود ملاحدة، وفي ذلك يقول: «وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أنّ هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروريّ لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمّة من أهل السّنّة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلّة العقليّة إنّما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا»[٥٥].

ولكن الأمر في عصرنا الحاضر مختلف تماما عن عصر ابن خلدون، فنحن أحوج ما نكون لهذا العلم -بعد تجديد أساليبه وأدواته لتناسب عقلية العصر- لمواجهة موجات الإلحاد التي بدأت تستشري بين الشباب من خلال المواقع الإلكترونية. فلماذا يركز علم الكلام المعاصر كل جهوده في الانغماس في قضايا الماضي التي حددها له التراث ويتجاهل القضايا المعاصرة الملحة؟

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكِّر بالتخوف الشديد حاليا من انتشار التشيع في مصر والذي ظهر في الفترة الأخيرة على

---

(٥٥) مقدمة موسوعة ابن خلدون ص٨٣٧- دار الكتاب المصري- اللبناني- القاهرة ١٩٩٩م.

الرغم من أن الدولة الفاطمية الشيعية حكمت مصر أكثر من قرنين من الزمان، وعندما رحلت لم يبق لها أي أثر شيعي في مصر حينذاك. وإذا كان التخوف من المد الشيعي في مصر حاليا تخوفا حقيقيا فإن هناك سببا آخر للتخوف يتمثل في انتشار المواقع الإلكترونية التي تروج للفكر الإلحادي بين الشباب ولا يجوز لنا أن نتجاهل انتشار هذه المواقع، وتزايد أعداد الشباب الزائرين لها من أبنائنا وبناتنا الذين تأثر البعض منهم بالفعل بهذا الفكر الإلحادي. ويقدر البعض على شبكات التواصل الاجتماعي الإلكترونية أعداد هؤلاء الشباب بعدد لا يستهان به من أبناء المسلمين في مصر وحدها، وكل ذلك يدعونا إلى أن نطور ونجدد في علم الكلام من أجل حماية عقيدة الأمة من الانحراف.

وأود أن أشير في هذا الصدد إلى محاولات الشيخ محمد عبده التي بذلها من أجل تجديد علم الكلام والتي لم تنطلق من فراغ، وتأليفه لرسالة التوحيد ليجعل هذا العلم أكثر فائدة للمسلمين، وأشير أيضا في هذا الصدد إلى محاولة وحيد الدين خان في تجديد علم الكلام في كتابه (الإسلام يتحدى)، ولم تكن (رسالة الرد على الدهريين) لجمال الدين الأفغاني بعيدة عن هذا المجال.

ونقد علم الكلام ليس أمرا جديدا من مستحدثات هذا العصر. فنحن نعرف أن الإمام الغزالي -الذي تتلمذ في هذا

العلم على إمام الحرمين الجويني، والذي خبر مسالك هذا العلم وألف فيه- قام أيضا بنقد هذا العلم مبينا أنه «قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا، حتى إنهم حينما اشتغلوا بالبحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها لم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق»[٥٦].

وبدوره انتقد ابن رشد -في كتابه (مناهج الأدلة في عقائد الملة)[٥٧]- الطرق التي استخدمها علماء الكلام للتدليل على وجود الله، وبين أنه ليس من بينها طريقة واحدة تتمثل فيها الطريقة الشرعية أو الطريقة العقلية السليمة.

ولا بد من التنبيه في هذا المقام إلى ضرورة إعادة النظر في الموقف من المعتزلة. فالدارسون لعلم الكلام غالبا ما يلقنون بأن المعتزلة معطلة، أو أن آراءهم شاذة وباطلة وغير ذلك من اتهامات يقصد منها صرف طلاب العلم عن الالتفات إلى هذه الفرقة المهمة من الفرق الإسلامية التي كانت في وقت مبكر سباقة إلى الرد على الزنادقة والمحرفين.

إن الأمانة العلمية تقتضي أن ننظر إليها نظرة موضوعية، وأن ندرسها دراسة محايدة غير موجهة، تبين ما لها من إيجابيات وما يؤخذ عليها من سلبيات. فليس كل ما قالته المعتزلة باطلًا، كما أن ما تبنوه من آراء ليس كله صوابًا.

---

(٥٦) المنقذ من الضلال ص٧٢ -دار الأندلس- بيروت ١٩٦٧م.

(٥٧) تحقيق د/ محمود قاسم ص١٤٩ وما بعدها -الأنجلو المصرية ١٩٦٩م.

وليس هناك من بأس في أن تتبنى المؤسسة الدينية ما تعتقد أنه الأقرب إلى الصواب من اتجاهات أو مذاهب في علم الكلام، ولكن لا بد في الوقت نفسه من مناقشة موضوعية لأفكار المعتزلة أو غيرهم من المخالفين، تميز بين المقبول والمرفوض، وبالتالي نعلم أجيالنا النقد الموضوعي، والاحتكام إلى العقل، بعيدا عن التحامل أو التجاهل أو عدم الاكتراث. فالمعتزلة مسلمون لا يجوز أن نشكك في إسلامهم. ولكنهم اجتهدوا في مسائل قد يكون التوفيق قد حالفهم في بعضها، وقد يكون الصواب قد جانبهم في البعض الآخر. أما أن نضع كل ما قالوه في سلة واحدة ونهيل عليهم التراب فهذا ليس من الدين ولا من العقل وليس في صالح الإسلام.

ولعل هناك أسبابًا معينة انطلاقا من ظروف العصر حينذاك، وشدة الحرص على حماية الإسلام في تلك الأزمان كانت وراء بعض ما ذهب إليه المعتزلة من آراء، وهذه قضية في حاجة إلى دراسة خاصة لعلها تكشف لنا عن بعض هذه الأسباب، أم أن الأمر بالنسبة للمعتزلة -كما يقول الدكتور علي سامي النشار- لا يعدو أن يكون: «حاجة مؤقتة من حاجات المجتمع الإسلامي أرادها وقتًا ثم تخلص منها»[٥٨].

ولا يغيب عن الأذهان أن المعتزلة كان لها أثر كبير في نشأة

---

(٥٨) د/ علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام- الجزء الأول ط: دار المعارف ١٩٧١م.

علـم الكلام بعد مرور قرن من الهجرة النبوية، وهدف المعتزلة مـن علم الكلام لا يختلف عن هـدف خصومهم والذي يتلخص في الدفاع عن العقيدة الإسـلامية في مواجهة خصومها، والذي يصـب فـي النهاية في تثبيت إيمان المسـلمين فـي عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى الوقوف صفا واحدا في مواجهة محاولات الهدم للعقيدة الإسلامية في عالمنا المعاصر.

ومن الأمور التي لم تحظ بعناية من جانب الباحثين في علم الـكلام الصلة التي تربط بين علـم الكلام (الفقه الأكبر)[٥٩] وعلـم (الفقه الأصغـر) الذي يهتـم بالأحكام الشـرعية. إن هناك بالفعل مشـكلة قائمة بين معظم العلوم الإسـلامية وهي انقطاع الصلة بينها على الرغم من أنها جميعا فروع لشـجرة واحـدة، وأعتقد أنه قد آن الأوان لإزالة هذه الانفصالية الحادة بيـن العلوم الإسـلامية، فكلها تخدم هدفا واحـدا وإن كانت المناهج متعددة.

ونظرا لغياب النظرة الكلية للعلوم الإسلامية لدى الدارسين نجـد من بينهـم من يتعصب لما درسـه وتخصص فيـه من هذه العلـوم، معليًا من شـأن تخصصه وأفضليته علـى بقية العلوم، وهـذه نظرة قاصرة تـدل على ضيـق الأفق ومحدوديـة الفكر، فالعلوم الإسلامية كلها مطلوبة ويكمل بعضها بعضا.

---

(٥٩) راجـع علـى سبيل المثـال: الفقه الأكبر لأبـي حنيفة، الذي شرحـه أبو منصور الماتريدي تحت عنوان (شرح الفقه الأكبر).

والأمر اللافت للنظر هو أن المستشرقين كانوا من السباقين إلى دراسة الصلة بين علم الفقه وعلم الكلام، ومنذ حوالي أكثر من ثلاثة عقود -حينما كنت عميدا لكلية أصول الدين- دعوت المستشرق الألماني (تلمان ناجل) لإلقاء محاضرة في الكلية حول موضوع (الصلة بين علم الشريعة وعلم الكلام في نظر الأشاعرة) وأذكر أن بعض الإخوة من أعضاء هيئة كبار العلماء كانوا من بين من استمعوا إلى المحاضرة واشتركوا في المناقشة.

والمجال هنا لا يتسع بطبيعة الحال لتفصيل القول في ذلك، ولكننا نشير فقط إلى بعض ما ذكره الفارابي في هذا الصدد في كتابه (إحصاء العلوم) حيث يقول عند حديثه عن علم الكلام: «وهذه الصناعة تنقسم جزءين أيضا: جزء في الآراء وجزء في الأفعال وهي غير الفقه: لأن الفقيه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلّمة، ويجعلها أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها، والمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط منها أشياء أخرى، فإذا اتفق أن يكون لإنسان ما قدرة على الأمرين جميعا فهو فقيه متكلم، فتكون نصرته لها بما هو متكلم، واستنباطه عنها بما هو فقيه»[(٦٠)].

(٦٠) إحصاء العلوم للفارابي، تحقيق: د. عثمان أمين ص١٣١، ١٣٢ -مكتبة الأنجلو المصرية- ط ثالثة ١٩٦٨م.

ومن بين المؤشـرات اللافتة للنظر والتي تدلنا على أن هناك صلـة وثيقة بيـن الفقه وعلم الـكلام نود أن نشـير فقط إلى أن المذهب الأشـعري قد تطور بيسـر في البيئة الشافعية، وأحيانا في أوسـاط الحنفية ثم بين المالكيـة آخر الأمر، كما أن النزعة الماتريدية كانت في بادئ الأمر وثيقة الصلة بالمذهب الحنفي. وقـد لقي مذهب المعتزلـة ترحيبا لدى الطوائف غير السـنية، وبصفة خاصة لدى الزيديـة. أما الحنابلة والظاهرية فقد رفضتا منهج علم الكلام، ومع ذلك وجدنا ابن حزم يتحدث عن شـرح صفات الله وأفعال البشر والنبوة والإيمان، وهذا يتضمن الكثير مـن الخـوض في الإلهيـات، وهناك أيضـا صلة وثيقـة بين علم الـكلام وأصول الفقـه، ويرى البعض أنهمـا يرتبطان في وحدة ثقافية[٦١].

ومـن بيـن القضايـا التي انتشـرت فـي عصرنا بشـكل غير مسـبوق قضيـة التكفيـر بما يترتـب عليها مـن آثـار كارثية، وأصبحت بعض التيارات التي تطلق على نفسها وصف إسلامية لا تتـورع عن إطلاق أوصاف الكفر والإلحاد والزندقة والفسـق والنفاق لأتفه الأسباب على كل من يخالفها في الرأي، واختلط الحابـل بالنابل، ولم يعد المواطن العـادي يفهم من هو المحق ومن هو المبطل، فالكل يرتدي عباءة الإسـلام، ويتحدث باسم

(٦١) دائرة المعارف الإسلامية -جزء ٢٤- ص٧٣٩٤ وما بعدها- مركز الشارقة للإبداع الفكري ١٩٩٨م.

الإسلام وكأن لديه تفويضا بذلك من عند الله.

وقد سبق أن أشار الشيخ محمد عبده إلى «ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر»[٦٢] ومن المعلوم أن هذا القول قد سبق أن قال به الإمام مالك.

ومهمة تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة من المهام الجليلة التي يجب أن يتصدى لها الأزهر الشريف، عن طريق بعض الإصدارات العلمية التي تحمل القول الفصل إلى المسلمين في هذه القضايا التي ابتليت بها الأمة.

ولا شك في أن ظاهرة انتشار المواقع الإلكترونية التي تروج للإلحاد بين الشباب - والتي سبق أن أشرنا إليها- تعد ظاهرة خطيرة وإن كانت لا تزال في بدايتها، ولكنها في حاجة إلى المواجهة المؤثرة التي تحمي شبابنا من هذا الخطر الداهم[٦٣]، ألا يدعونا ذلك إلى أن نطور ونجدد في علم الكلام من أجل حماية عقيدة الأمة من الانحراف؟

لقد شاهدت جانبا من برنامج تليفزيوني استضافت فيه مقدمة البرنامج أحد الشباب الملحدين ويدعى إسماعيل

---

(٦٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للشيخ محمد عبده ص٥٣ -دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ.

(٦٣) راجع أيضا: فاروق جويدة -الصفحة الأخيرة من الأهرام ٢٨/ ٥/ ٢٠١٣م.

محمد وهو طالب في السنة النهائية في إحدى كليات التربية، واستضافت أيضا عميد كلية أصول الدين بالقاهرة للرد على مزاعم هذا الشاب، وأثناء البرنامج تلقت المذيعة اتصالا هاتفيا من زميل للشاب المذكور وهو ملحد أيضا، وقد ادعى أن عدد الملحدين من الشباب في مصر يقدر بالملايين، وشكك في حقيقة أن يكون القرآن متواترًا. وقد اضطرت القناة إلى قطع المكالمة بعد هذا التطاول على القرآن الكريم. وفي اتصال هاتفي أيضا مع والدة الشاب إسماعيل محمد عبَّرت الأم عن حزنها لما وصل إليه حال ابنها، وأكدت أن جميع أفراد الأسرة يرفضون موقف الابن ودعت له بالهداية، وقالت أيضا: إن ابنها يقضي نصف وقته أمام الكمبيوتر، وهذا يؤكد أن هذا الشاب أحد ضحايا المواقع الإلكترونية التي تروج للفكر الإلحادي.
وقد وصلت الجرأة بهؤلاء الشباب المتحولين للإلحاد إلى حد أنهم طلبوا من لجنة الخمسين لوضع الدستور السماح لممثلين عنهم لعرض تصوراتهم أمام جلسات الاستماع التي تعقدها اللجنة، وهم يهدفون بطبيعة الحال إلى النص في الدستور على الحق في الإلحاد، ولم تلتفت اللجنة إلى هذا الطلب، ولكن مشكلة هؤلاء الشباب لا تزال قائمة[٦٤].

وأود أن أُسجل هنا بكل تقدير ما يبذله أستاذ الجراحة بجامعة

---

(٦٤) قناة المحور مساء الأحد ١٠/ ١١/ ٢٠١٣م، وأيضا مقال د. أسامة الغزالي حرب حول هذا الموضوع بصحيفة الأهرام في ١٢/ ١١/ ٢٠١٣م ص١١.

عين شــمس الدكتور عمرو شــريف من جهد مشكور في تبديد أوهام الإِلحاد والملحدين، فيما ينشره أسبوعيًّا بصحيفة أخبار اليوم وفي كتابه (وهم الإِلحاد) الذي نشر ملحقًا بمجلة الأزهر (محرم ١٤٣٥هـ) ويُعبر الدكتور محمد عماره في تقديمه لهذا الكتاب عن صدمته «عندما لم يجد أحدًا بين علماء الإِســلام قد أوْلى هذا الحقل -حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدين- ما يستحق من التخصص والاهتمام»[٦٥].

ومِــن أجــل ذلك فإننــا في أشــد الحاجة إلــى تعريف شــبابنا بالإِســلام فــي صورته المشــرقة، وتعاليمــه الســامية، ومقاصده العُليــا، وحرصــه على رعاية حقوق الإِنســان بصفة عامة وحقوق المرأة بصفة خاصة، وتأكيده على قيم الرحمة والتسامح والصدق والتعاون من أجل بناء مجتمع قوي متحضر يشد بعضه بعضًا، لا مكان فيه للعنف والقسوة والغلظة في التعامل بين الناس.

ومــن هنــا فنحن أيضًا في أشــد الحاجــة إلى تجديــد التراث وتنقيتــه وتقديمــه لأجيالنا في صورة مشــوقة. وقد أصبح ذلك كله من الضرورات الحتمية لإِنقاذ ما يمكن إنقاذه من الاحتفاظ بالهوية الإِســلامية التي أصبحت اليوم مهددة أكثر من أي وقت مضى بعد أن اجتاح طوفان العولمة كل بقاع العالم.

---

(٦٥) صــ:١٤ من كتاب وهْم الإلحاد المشــار إليه. ولعلنا لا زلنا نذكر قصة هذه الفتاة التــي تدعى عليــاء المهدي، الطالبــة بالجامعة الأمريكية في القاهــرة، والتي نشرت صورتها عارية تمامًا على شبكات التواصل الاجتماعي، وذلك في تحدٍّ صارخ للمجتمع، ولم يحرك أحدٌ ساكنًا لمواجهة هذا العبث بقيم الإسلام وعقائده.

٣- في مجال التفسير وعلوم القرآن:

لقد كان أمرًا محمودًا وجديرًا بالتقدير لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر أن أضافت منذ أكثر من ثلاثة عقود إلى مقرر التفسير مقررًا جديدًا بعنوان: الدخيل في التفسير، وكان ذلك يُعد تطورًا مهمًا لتنقية هذا العلم الجليل من الإسرائيليات والخرافات التي أدخلها بعضُ المفسرين -بحُسن نية- في كتبهم.

ولكن هناك قضية أخرى في غاية الأهمية والخطورة، وأعتقد أنها قد تكون أكثر خطورة من موضوع الإسرائيليات وهي قضية النسخ في القرآن الكريم، والتي استقرت في أذهان المسلمين منذ قرون طويلة، وأصبح من المُسلَّم به أن من بين الشروط التي يجب أن تتوافر في العالم الذي يحق له الاجتهاد أن يكون عالمًا بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وأرى أنه قد آن الأوان لإعادة النظر في هذه القضية التي يجري توظيفها للطعن في القرآن الكريم فمن غير المعقول أن يتعرض هذا الكتاب الكريم- الذي وصفه الله تعالى بأنه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود: ١)

وأنه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ٣٤)

للعبث بهذه الآيات المحكمات عن طريق الزعم مثلًا بأن آية الرجم قد نُسخت قراءتها وبقي حكمها[٦٦]، أو أن حديثًا معينًا

(٦٦) لا يتوهمنَّ متوهم أن معنى ذلك إنكار حد الرجم، فحد الرجم ثابت بالسنة، وهي قد تستقل بالتشريع - كما هو معلوم. (المجلة)

قد نَسخ آيةً من آيات القرآن الكريم، ويذهب الشطط بالبعض إلى أن الآيات المنسوخة في القرآن الكريم يصل عددها إلى مئات الآيات، ويأتي ذلك اعتمادًا على فهم غير صحيح لقوله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾

(البقرة: ١٠٦)

على اعتبار أن آية هنا تعني آية قرآنية، وهذا غير صحيح، فآية هنا تعني معجزة أو علامة أو أمارة، وقد تكون منسحبة على الشرائع السابقة. وآيات القرآن الكريم يُشار إليها في العادة في الكتاب الكريم بلفظ الجمع، وإثبات النسخ في القرآن الكريم يفتح الباب واسعًا أمام الطعن فيه -كما أشرنا- ويتناقض مع ما جاء في القرآن بأنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾(٦٧)، ولا يحقق أي مصلحة للإسلام.

وليس هنا بطبيعة الحال مجال لمناقشة قضية النسخ تفصيلًا. ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى الدراسة الممتازة

---

(٦٧) يذهب الشيخ محمد الغزالي إلى القول بأنه لا نسخ في القرآن، بمعنى محو حكم سابق بآخر لاحق، وأن الأمر لا يعدو أن يكون من قبيل: تخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو إظهار حكم ما بطريق التدرج. (مائة سؤال عن الإسلام ص١٦٧ وما بعدها- ط٤- دار ثابت ١٩٨٩م) وهذا ما سبق أن قال به الإمام الشاطبي في الموافقات. وقد شاع القول بالنسخ في كتب عوام المفسرين بالمعنى الذي اعتمد عليه خصوم الإسلام. (راجع د/ محمد عمارة- حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم ص٥٩ وما بعدها، وأيضًا ص٨١) دار السلام بالقاهرة ٢٠١٠م.

التي أعدها الدكتور محمد عمارة بعنوان: (حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم)، وما أود أن أقوله هو أن الأزهر الشريف يتحمل مسئولية إعادة الدراسة العلمية العميقة لهذه القضية بناء على منطق العقل، وحفاظًا على قُدسية القرآن الكريم، وليس فقط استنادًا على النقول من كتب عوام المفسرين التي توارثت هذه المزاعم جيلًا بعد جيل.

ومن الضروري في هذا الصدد إعادة النظر في المناهج والمقررات الدراسية في معاهد الأزهر وجامعته؛ لتنقيتها مما توارثته الأجيال المتعاقبة من تأكيد لمزاعم وقوع النسخ في القرآن الكريم.

ومن الأمور التي ينبغي بحثها ومناقشتها والرد عليها بطريقة علمية، ما يُنشر بالعربية وباللغات الأجنبية من بحوث حول تاريخية النصوص المقدسة، ومحاولة تطبيق ذلك على النص القرآني، ويعتمد أصحابُ هذه الدراسات التي تقول بتاريخية النص القرآني على قضايا النسخ، وأسباب النزول، والمكي والمدني في القرآن الكريم [٦٨]. ولا شك أن الباحثين العرب يقلدون في هذا الصدد الباحثين الغربيين الذين يسيرون في هذا

---

(٦٨) ويعتبرون ذلك أكبر دليل على جدلية العلاقة بين الوحي والواقع: فالنص القرآني -كما يزعمون- يُعد ثمرة للتفاعل مع الواقع الحي التاريخي مما يعني تاريخية النص وجدله مع الواقع. راجع: دراسات في تفسير النص القرآني جـ٢ ص٢٧١-٢٧٩. بيروت ٢٠١٠م.

الاتجاه متأثرين بالفيلسوف اليهودي المعروف اسبينوزا الذي ذهب إلى إخضاع الكتاب المقدس للنقد التاريخي[٦٩].

ومعظم المؤلفات العربية في هذا الصدد إما مترجمة عن اللغات الأجنبية، أو كَتبها مؤلفون من العرب الذين يعيشون في الغرب أو الذين يعيشون بيننا في عالمنا الإسلامي. ومن الواضح أن المشتغلين بعلم التفسير في عالمنا العربي الإسلامي لا يهتمون إطلاقًا بهذه النوعية من الدراسات، ويتجاهلونها تمامًا. ويكتفي البعضُ في كثير من الأحيان بإخراج صاحبها من المِلَّة إن كان مسلمًا، أو حتى التفريق بينه وبين زوجته كما حدث في قضية نصر حامد أبو زيد، الذي رحَّبت به أوروبا ترحيبًا بالغًا وعيَّنته هولندا أستاذًا في أعرق جامعاتها إلى أن توفَّاه الله.

وأعتقد أن تجاهل هذه البحوث وغيرها من بحوث المستشرقين التي تصبُّ في خانة التشكيك في القرآن الكريم تصريحًا أو تلميحًا ليس في صالح الإسلام؛ لأن هناك قطاعًا لا يُستهان به من المثقفين في عالمنا الإسلامي يتأثرون بشكل أو بآخر بهذه الدراسات[٧٠].

وقد آنَ الأوانُ- ونحن اليوم في عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة العلمية والتكنولوجية- أن نتعرف على ما

(٦٩) رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا -ترجمة د. حسن حنفي ص١١- القاهرة ١٩٧١م.

(٧٠) راجع كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري -ص٧٧- ٩٠، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨م.

يقوله الآخرون عن ديننا بصفة عامة، وعن قرآننا بصفة خاصة، ومناقشتها مناقشة علمية، وإصدار البحوث والدراسات في هذا الصدد حماية للأجيال المسلمة في عالمنا المعاصر الذي لم يعد فيه مجالٌ لمنع الأفكار من اختراق الحدود بين قارات العالم.

ومن الأمور التي ينبغي أن تحظى باهتمام علماء التفسير في عصرنا الحاضر، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. فقد دَرَجَ المشتغلون بالتفسير على مرِّ العصور على الاهتمام بالتفسير الموضعي الذي يتناول الآية أو الطائفة من الآيات، فيشرحون الألفاظ والتراكيب والأحكام ويستخلصون الدروس المستفادة منها، وهذا اللون من التفسير للقرآن الكريم يُعد أسهل الطرق المعتادة لدى المفسرين في فهم القرآن الكريم.

ولكن هناك لونًا آخر من التفسير يحتاجه الكثيرون من جمهور المسلمين وغيرهم للتعرف -على نحو واضح وأشمل- على القرآن الكريم، وهو التفسير الموضوعي، وهذا التفسير- كما يُوضح ذلك الشيخُ محمد الغزالي -رحمه الله- «يتناول السورة كلها ويحاول رسم (صورة شمسية) لها -على حد تعبيره- تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها».

وقد حذا الشيخُ الغزالي حذو المرحوم الدكتور محمد عبد

الله دراز فـي هذا الصدد، وأخرج لنا كتابَه القيِّم: (نحو تفسـير موضوعي لسـور القرآن الكريم)[٧١]. ويُشـير إلى ذلك بقوله: «لقـد عنيتُ عنايةً شـديدةً بوحـدة الموضوع في السـورة، وإن كثرتْ قضاياها، وتأسـيتُ في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة -وهي أطول سورة في القرآن الكريم- فجعـل منها باقةً واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه (النبـأ العظيم) وهو أول تفسـير موضوعي لسـورة كاملة فيما أعتقد»[٧٢].

ويشـير الشـيخُ الغزالي إلى معنى آخر للتفسير الموضوعي -لم يتعرض هو له (في كتابه المشـار إليه) -وهو تتبع المعنى الواحـد فـي طـول القـرآن وعرضه وحشـده في سـياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس- ولكنه قدم نماذج لهذا التفسـير في كتابيه (المحاور الخمسـة للقـرآن الكريم) و(نظرات في القرآن)

وعلى الرغم من تحمس الشيخ الغزالي للتفسير الموضوعي بنوعيـه المشـار إليهمـا فإنـه ينبه إلـى أنـه «لا يغني أبـدًا عن التفسـير الموضعي، بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة»[٧٣].

---

(٧١) نشرته دار الشروق عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٧٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ الغزالي ص ٥، ٦.

(٧٣) المصدر السابق نفس الموضع.

٤- في مجال الحديث النبوي:

من المعلوم أن أئمة علم الحديث النبوي قد بذلوا جهودًا خارقة في توثيق الأحاديث النبوية، ووضعوا من الضوابط والشروط ما يفوق الوصف لتكون معايير للتمييز بين ما هو صحيح، وما هو غير صحيح من الأحاديث النبوية.

ولعلماء الحديث باعٌ طويل في نقد الرواة وبيان حالهم من صدق أو كذب، فقد وصلوا في هذا الباب إلى أبعد مدى، وأبلوا فيه بلاء حسنًا، وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفي من أمرهم وما ظهر، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج، فقد وضع القرآن الكريم أمام المسلمين أهم قاعدة من قواعد النقد في هذا الصدد في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

(الحجرات: ٦)

فأخلاق الراوي تعد عاملًا مهمًا في الحكم على روايته، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وتطبيقها على رواة الأحاديث النبوية، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواة الأحاديث النبوية هو الذي تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخي.

ولا شك في أن الجهد البشري الذي بذله أئمة الحديث جهد

مشكور ويحظى بكل الإجلال والتقدير، ولكنه يظل في كل الأحوال جهدًا بشريًا، ولا يقلل من أهميته بأي حال من الأحوال ما يمكن أن يجده المرء من بعض الهنات هنا أو هناك.

ومن هنا فإن ما يتردد بين الحين والآخر من وجود أحاديث قليلة في النفس منها شيء قد وردت في صحيح البخاري أو في غيره من الكتب الستة، أمر لا بد أن يحسم بطريقة علمية، وليس عن طريق الرفض دون بحث، وتوجيه الاتهام لكل من يجرؤ على ترديد ذلك بأنه كافر أو فاسق... إلخ.

وأذكر أن الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- قد تعرض لحملة ظالمة بعد صدور كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) والذي طبعته دار الشروق أربع طبعات في عام واحد (١٩٨٩م) وقد صدرت عدة كتب لا تقل عن عشرة تكيل له الاتهامات، ومن بين هذه الكتب كتاب يربو على أربع مئة صفحة بعنوان (جناية الشيخ الغزالي على الحديث النبوي)، وقد كان -رحمه الله- أبعد الناس عما يظنون. ولكن الأصدقاء الجهال للإسلام -بتعبير ابن رشد- يسيئون إلى الإسلام أكثر من إساءة الأعداء لهذا الدين. وقد قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل، وبخاصة حين يكون جهل الصديق جهلًا مركبًا، فهو جاهل ولكنه يجهل أنه جاهل، كما جاء في الأسطورة المعروفة في هذا الصدد.

وبعيدًا عن غوغائية العامة وأنصاف المتعلمين والأصدقاء

الجهـال، أعتقـد أن على الأزهر الشـريف أن يتصدى على نحو علمي لبحث كل شـبهة والرد على كل الشـكوك التي تُثار بين الحيـن والآخر، ومن الواضح أن الجميـع أصبح اليوم ينظر إلى الأزهـر نظـرة تقدير واحترام، ومـن هنا فإن ما يصـدره من آراء فـي أي مسـألة من المسـائل الشـرعية سـيُقابل من غير شـك بالقبول والرضا بصرف النظر عن بعض العناصر المتشـددة في المجتمع، والتي لا يجدي معها أي حوار أو نقاش.

ومن بين القضايا المرتبطـة برواية الأحاديث النبوية، والتي ثـار حولهـا جدل فـي الفتـرة الأخيـرة، قضيـة زواج النبي ﷺ بالسـيدة عائشـة -رضي الله عنها- فالروايات الشـائعة في هذا الصـدد تتحدث عن زواج النبي بعائشـة وهي في سـن الطفولة، وهنـاك بعض التيارات الإسـلامية تروِّج اليوم لـزواج البنات في سن مبكرة اقتداء -كما يقال بالنبي ﷺ[٧٤].

ولكـن بعض البحـوث العلمية الحديثة أثبتـت أن زواج النبي بالسـيدة عائشـة كان وهـي في سـن السـابعة عشـرة أو الثامنة

---

(٧٤) يـروي لنا الصحفيُّ النمسـاوي -ليوبولد فايس- الذي اعتنق الإسلام منذ حوالي قـرن من الزمان واتخذ لنفسه اسم محمد أسد -في كتابه (الطريق إلى مكة) أنه حينما زار مكـة ومكث بها فترة من الزمن عرض عليه البعضُ من الذين تعرفوا عليه هناك أن يتـزوج حتى لا يعيش وحيدًا في مكـة، وبعد تردد وافق على الفكرة. ونظرًا إلى أنه من التقاليد المعروفة هناك أنه لا يجوز للرجل أن يرى مَن سيتزوجها إلا بعد أن تُزف إليه بعد العقد عليها، فإنه حينمـا أتي إليه بعروسه في مسكنه وكشف عن وجهها فوجئ بأنها طفلة لا يمكن أن تصلح للزواج، فما كان منه إلا أن هيأ لها المكان الذي تنام فيه وتركها لتنام حتى الصباح، ثم سلمها لأهلها دون أن يمسها.

عشــرة من عمرها ، ويرجع الســبب في وقوع هــذا التضارب إلى أن اهتمام سلف الأمة من المحدثين كان مُنصبّا على علم الرواية مــع قليل من العناية بعلم الدرايــة ، ومن هنا يمكن أن نجد بعض الأحاديث التي لا غبار عليها من حيث السند ، ولكنها من الناحية الموضوعية قد تتعارض مع العقل أو العلم أو مع نصوص أخرى .

ومن أجل ذلك يتطلب الأمر أن تتضافر جهود علماء التاريخ الإِســلامي وعلماء الحديث لحســم هذه القضيــة ، ولا يجوز لنا أن نترك الناس مشــتتين وفي حيرة مــن أمرهم في قضية تُعد من القضايا المصيرية لنصف المجتمع الإِسلامي .

ومن بين القضايا المهمة في هذا الصدد بالنسبة لمجتمعاتنا الإِسلامية في العصر الحاضر ، قضايا المرأة التي تقع بين تيارين متناقضين ، أو بين شقي الرحى في المجتمع الإِسلامي : بين تيار متشدد متزمت يحرم على المرأة كل شيء ولا يجيز لها الخروج من البيت إلا مرتين : مرة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، والمرة الثانيــة إلــى القبر ، وتيــار آخر متحــرر يفتح لهــا كل الأبواب ، والسُّــنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ فيهما العلاج الحاسم الذي يعطــى المرأة حقوقهــا كاملة غير منقوصة ، وفي الوقت نفســه يحفــظ عليها كرامتها ويصون عفافهــا ويحميها من أي عدوان عليها بأي شكل من الأشكال .

ولا يجــوز في هذا الصــدد تجاهل الجهد الكبيــر الذي بذله الأستاذ عبد الحليم أبو شقة في إخراج كتابه المعنون : (تحرير

المـرأة في عصر الرسـالة) في سـتة أجزاء اعتمـادًا على القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسـلم، ويشتمل على معلومات لا يجوز أن يجهلها جمهور المسـلمين في عالمنا المعاصر، وفيه ما يقلب الكثير من العادات السـائدة في المجتمعات الإسلامية بشأن المرأة رأسًا على عقب.

ومن ذلك- على سـبيل المثال -ما رواه البخاري ومسلم عن سـهل بن سـعد قال: لما عرَّس أبو أسـيد السـاعدي دعا النبي ﷺ وأصحابه، فمـا صنع لهم طعامًا ولا قربه إليهم إلا امرأته أم أسـيد. وروى البخاري أيضًا عن عائشـة أنها زفت فتاة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ: يا عائشة: ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو.

وفـي رواية أخـرى: «هل بعثتـم معها جارية تضـرب بالدف وتغني؟ قلت: ماذا؟ قال: تقول:

أتـــيـــنـــاكـــم أتـــيـــنـــاكـــم
فـــحـــيـــونـــا نـــحـــيـــيـــكـــم
ولـــــولا الـــــذهـــــب الأحـــمـــر
مـــا حـــلـــت بـــواديـــكـــم
ولـــولا الـــحـــنـــطـــة الـــســـمـــراء
مـــا ســـمـــنـــت عـــذاريـــكـــم[(٧٥)]

(٧٥) راجــع: تحرير المرأة في عصر الرسالة لعبــد الحليم أبو شقة ج٢ ص٢٤١- ٢٤٤ -دار القلم بالكويت ١٩٩٩م.

وهناك الكثير من هذه الأمثلة التي وردت عن رسول الله ﷺ مما يدل على سماحة الإسلام ويسره، وأنه دين لا يصادر العواطف ولا يمنع اللهو المباح:

● ويتناول المؤلف في الجزء الأول موضوع: معالم شخصية المرأة المسلمة.

● وفي الجزء الثاني: مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية.

● أما الجزء الثالث: فيشتمل على حوارات مع المعارضين لمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية.

● أما الجزء الرابع: فيتناول موضوع: لباس المرأة المسلمة وزينتها.

● وفي الجزء الخامس: يعالج موضوع: مكانة المرأة المسلمة في الأسرة.

● أما الجزء السادس: فيتناول الثقافة الجنسية للزوجين.

٥- الفكر الإسلامي والتيارات المعاصرة:

تمهيد:

لا جدال في أن عصرنا الحاضر -عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية، عصر الفضائيات والبرمجيات والاستنساخ، عصر العولمة والإنترنت- يُعد عصرًا مختلفًا اختلافًا بينًا عن أي عصر سابق. فقد أصبحتْ منجزات هذا العصر تُحاصر الإنسان في كل مكان، ولم يعد في مقدور المرء

أن يلاحـق التطورات والاكتشـافات العلميـة المذهلة التي تظهر كل يوم.

وقد انعكس ذلك كله بطبيعة الحال على نظرة الإنسان للحياة، وعلى اهتماماته ومتطلباته، وأصبحت النظرة المادية للحياة تكاد تطغى على تفكير الكثيرين في المجتمعات المعاصرة.

وقد دفع ذلك البعض إلى التسـاؤل عن مدى التأثير السـلبي لذلك كله على الأديان بصفة عامة، وعلى الإسلام بصفة خاصة؟ وقد يطرح البعض التسـاؤل بشكل أكثر وضوحًا عمَّا إذا كان لا يزال هنـاك للأديان -في خضـم هذه التطـورات المذهلة- دور أو مـكان في حياة الإنسـان؟ وعمَّـا إذا كان الدين قد أصبح من الهامشيات في حياة الإنسان المعاصر؟

إن هناك أسـئلة كثيرة في هذا الصدد تفرض نفسـها بإلحاح ولا بد للمرء من مواجهتها والتفكير فيها، والإسلام لا يستطيع أن يعزل نفسـه عـن كل ما يدور حوله في هـذا العصر أو في أي عصر قادم، وبخاصة أنـه بطبيعته وفي جوهره دين للحياة بكل أبعادها وفي كل جوانبها مادية كانت أو روحية. إنه دين لا ينعزل لحظة عن مشكلات الإنسان. ومن هنا فإنه من ناحية يعيش معه ماضيه وحاضره ومسـتقبله، ومن ناحية أخرى لا يكبل الإنسان بأغـلال تعوقه عن التقدم ومواكبة العصر، إنه يضع الأُطر العامة ويترك للإنسـان حرية الاجتهـاد والبحث عن الحلـول الناجعة لمشكلات عصره.

إن العيب إذن ليس في الدين، ولكن في الفهم السقيم للدين، ومن هنا فإن التخلف والجمود والقصور في مسيرة عالمنا الإسلامي ليس بسبب الدين، وإنما بسبب عقول تحجرت وقلوب تبلدت وأفهام قصرت عن إدراك جوهر الدين وجوهر الحياة معًا، والأمر الغريب أن هذه الأفهام المتبلدة والعقول المتحجرة لا تكتفي بأن تلقي علينا بغثائها الفكري، وإنما ترتكب جريمة في حق الدين إذ تنسب ذلك كله إلى الدين، وتحكم على كل من يخالفها في الفهم السقيم بأنه مارق من الدين نفسه، وأصبحت تهمة الكفر والخروج عن الدين شيئًا هينًا يرمى به كل من له رأى مختلف.

إن التجديد في الإسلام، بمعنى التجديد في فهمنا للإسلام، أمر مطلوب وضروري، والنبي ﷺ نفسه قد أشار إلى ذلك حين قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[٧٦].

كما أن الإسلام يحث على الاجتهاد ويجعل للمجتهد الذي يخطئ أجرًا واحدًا وللمصيب أجرين. وهكذا تصل سماحة الإسلام إلى هذا الحد الذي يثيب فيه المجتهد الذي يخطئ، وبيننا من ينكر الاجتهاد ويعتقد أن بابه قد أغلق منذ قرون.

(٧٦) رواه الحاكم وأبو داود والبيهقي. (راجع: فيض القدير ج٢ ص٢٨١)

إن هـذا لأمر عجـاب ! فمن ذا الذي يجرؤ على إعطاء نفسـه الحق في غلق باب الاجتهاد بعد أن فتحه صاحب الرسالة محمد ﷺ ؟ !

لقد صدق المفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال حين قال : إن الاجتهاد هو مبدأ الحركة في الإِسلام(٧٧) ؛ لأن الحياة في حركة دائمـة ، وروح هـذه الحركة هـو الاجتهاد الـذي يجددها بصفة مسـتمرة ، ومن ذلك يتضـح أن الدين الذي يحث على الاجتهاد ويتمسـك به ، ويعلي من شـأن العقـل الإِنسـاني ، ويعتبر عدم استخدامه ذنبًا من الذنوب ، ويوصي بالتجديد المستمر لحركة الحياة –لهو دين قادر على مواجهة أي مشـكلات تنشـأ الآن أو في المستقبل مهما اختلفت الظروف وتباينت الملابسات .

وفي الصفحات التالية نحـاول إلقاء نظرة على أهم التيارات المعاصرة ، ونعني تيار العولمة وكيف يمكن للفكر الإِسـلامي التعامل معها .

---

(٧٧) انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام للدكتور محمد إقبال. ترجمة عباس محمود ص ١٤٤، ١٦٨، ١٧٠. (القاهرة ١٩٦٨م)

الإسلام والعولمة

لقد درج البعض في عالمنا الإسلامي على إبداء تخوفهم وفزعهم بشكل واضح عند ظهور أي تيار فكري جديد، أو مذهب اقتصادي، أو نظرية سياسية، أو غير ذلك من تيارات تهبّ علينا من الشرق أو من الغرب. ومن منطلق خشيتهم على القيم الدينية وحماية المسلمين من أخطار تلك التيارات يتجهون ابتداءً إلى رفض هذا التيار أو ذاك؛ لما يمثله -في نظرهم- من غزو فكري أو اقتصادي أو غير ذلك، وقد يميلون إلى الاعتقاد بأن هذا الغزو يمثل أحد فصول مخطط مرسوم بعناية، للقضاء على الإسلام والهوية الإسلامية.

وفي المقابل نجد فريقا آخر في عالمنا الإسلامي يتقبل كل ما يأتي من الشرق أو من الغرب دون تمحيص، ويتحمس له، ويتهم الرافضين بالجهل والتخلف والرجعية، فكل ما يأتي من البلاد المتقدمة -في نظر هذا الفريق- لا بد أن يكون أيضا متضمنا لأسباب التقدم والرقي.

ويحدث في كثير من الأحيان أن يتصارع هذان الفريقان: الرافض بإطلاق، والمتقبل بإطلاق، ويهدرون في مناقشات عقيمة الكثير من الجهد والوقت، في جدل لا طائل من ورائه. ومن الأمثلة على ذلك الموقف من الحضارة الغربية بصفة عامة، أو الموقف من الدراسات الاستشراقية في الغرب، أو الموقف في السنوات الأخيرة من قضية العولمة، وغيرها من قضايا أخرى.

ويمثل هـذان الفريقان -علـى الرغم من تباعـد ما بينهما- نظـرة أحادية الجانب لا تريد أن تسـتوعب القضايا المطروحة على بساط البحث بكل ما لها وما عليها بطريقة موضوعية.

ومن هنا فنحن -ابتداءً- لسنا مع أو ضد العولمة، ولكننا مع النظـرة النقدية الواعية للعولمة ولغيرها مـن التيارات الوافدة. وأعتقد أن الضرورة تحتم أن يكون للمسـلمين نظرتهم النقدية التـي تتعمـق فـي القضايا بـكل أبعادهـا، وتحللها مـن جميع جوانبها، وتخط لنفسها طريقا لا يتجاهل الواقع من ناحية، ولا يندفع دون وعي نحو كل دعوة جديدة من ناحية أخرى.

وأود أن أشير هنا إلى بعض الملاحظات المبدئية:

● أولا: الإسـلام كدين ليس تيارا فكريا أو ظاهرة وقتية حتى يُخشـى عليه مـن التيارات الفكريـة الوافدة، إنـه دين له جذور ضاربة في أعماق الكيان الإسـلامي، وأصول راسخة لا تستطيع أن تنـال منهـا التيـارات الوقتيـة الطارئة، ولا يُخشـى على هذا الديـن مـن أي تيارات داخليـة أو خارجية، مهمـا كانت قوتها، طالما فَهِم المسلمون هذا الدين فهما صحيحا، وأدركوا إدراكا واعيا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقي.

● ثانيا: العولمة واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض، إنه تيار بدأ بالمجال الاقتصادي، وامتد إلى المجال السياسي والمجال الثقافي، وهذا الواقع يعد حقيقة ماثلة أمامنا لا مجال لإنكارها.

● ثالثـا: لا يجوز لنا أن نتجاهـل أننا لا نعيش وحدنا في هذا

العالم، وأننا نعيش الآن في عصر ثورة الاتصالات والمعلومات، والثورة التكنولوجية، وفي عصر السماوات المفتوحة، وهذا يعني أنه لا مجال للانعزال أو التقوقع.

وإذا كانت العولمة تهدف إلى إزالة الحواجز الزمانية والمكانية والثقافية والسياسية والاقتصادية بين الأمم والشعوب، وتحاول بطرق مختلفة فرض قيم معينة وحضارة معينة هي قيم الحضارة الغربية، أو قيم الأقوياء، فإن ذلك لا ينبغي أن يصيبنا بالفزع وفقدان التوازن، لأن ذلك لن يجدي فتيلا، ولن يتيح لنا الفرصة للتفكير السليم. فنحن -كما سبق أن أشرت- أمام واقع، وواجبنا هو أن نتعامل معه. وهذا الواقع ليس كله شرا، وليس كله خيرا. ومن هنا ينبغي التعامل معه على هذا الأساس.

ومن الواضح أن العولمة تشتمل على عناصر جوهرية، كما تشتمل على عناصر أخرى مصاحبة، ولكنها أصبحت تحاصر الناس في كل مكان في العالم عن يمينهم وشمالهم، ومن أمامهم ومن خلفهم، ويتمثل ذلك -على سبيل المثال لا الحصر- في انتشار المأكولات والمشروبات السريعة مثل (الهامبورجر) و(الكوكاكولا)، والملبوسات مثل (الجينز)، والبرامج والأفلام والفنون المختلفة -الجيد منها والرديء- ووسائل الترفيه المختلفة...إلخ.

ولكن الشيء الأهم في ذلك كله هو ما تحمله العولمة

فــي طياتها مــن الترويــج لأنماط معينــة في العلاقات الأســرية والاجتماعيــة والجنســية الســائدة في الغــرب -المصدر الأول للعولمة- وليس بخاف على أحد أننا إذا أغلقنا الأبواب والنوافذ أمام هذا الســيل الجارف من العولمة، فإننا لن نستطيع أن نمنع وصول ذلك إلى المواطنين عن طريق الأقمار الصناعية، والدش وشاشــات التلفزيون، والإنترنت. ومن أجل ذلك قلنا: إننا أمام واقع لا بد من التفكير في التعامل معه على نحو سليم.

إن العولمة -في رأينا- تمثل بالنســبة للمســلمين دعوة غير مباشــرة إلى ممارسة النقد الذاتي ليعيدوا النظر في حساباتهم، ويعيــدوا ترتيب البيت من الداخل، وهــذه الدعوة تأتي بطبيعة الحــال دون قصــد مــن أصحاب العولمــة. وقد يــرى البعض أن العولمــة تمثل اســتفزازا للمســلمين، ونرى أنه اســتفزاز مفيد إذا أحســن المســلمون التعامل معه بأســلوب عقلاني بعيد عن التشنج والانفعال.

وإذا كنا هنا بصدد الحديث عن الإســلام والعولمة، فإننا لن نستطيع بطبيعة الحال -أن نفصل القول في كل جوانب العولمة وأبعادهــا المختلفــة، فهــذا التفصيل له مجال آخــر، ومن أجل ذلك سنركز فيما يلي بإيجاز شديد على بعض الأبعاد الجوهرية في العولمــة، وبخاصة في أهم جوانبها الاقتصادية والسياســية والثقافية، والموقف الإسلامي من ذلك كله.

أما الجانب الاقتصادي فإنه يعد أبرز مجالات العولمة، وتتمثل

العولمة في هذا المجال في حرية السوق، وما يرتبط بذلك من إزالة الحواجز أمام تدفقات التجارة والسلع والخدمات والمال والبرامج، وفتح أبواب التبادل دون عوائق، وتكوين التكتلات الاقتصادية الكبرى التي تضم الدول المتقدمة، كما تتمثل مراكز العولمة الاقتصادية أيضا في الشركات العملاقة متعددة الجنسيات -التي تتحكم في الإدارة الاقتصادية العالمية، وتتراكم أرباحها على حساب دول الجنوب الفقيرة- وفي المؤسسات المالية الدولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

وإذا جاز لنا أن نبدي وجهة نظر عامة -غير متخصصة- في هذا الصدد فإننا نعتقد أن العولمة الاقتصادية ينبغي أن تحمل المسلمين على الاستفادة مما قامت عليه من تكتلات اقتصادية، وهذا يعني أن عليهم أن يتجهوا دون إبطاء إلى تكوين تكتل اقتصادي عربي، وتكتل اقتصادي إسلامي، والمشاركة في تكتلات أخرى إقليمية ودولية. وعليهم أن يرتفعوا في مجال الإنتاج إلى مستوى الجودة التي تؤهلهم للدخول في عصر المنافسة العالمية، مع ضرورة التنسيق والتكامل في مجال التخصص الإنتاجي للسلع المختلفة.

وتنشيط التجارة البينية بين دول العالم الإسلامي التي لا تتعدى حاليا للأسف الشديد -نسبة ١٠٪- من مجمل تجارة العالم الإسلامي مع العالم الخارجي.

وعندما ينجح المسلمون في ذلك كله فلن تكون هناك على

الأرجح مخاطر ذات بال من جانب العولمة الاقتصادية على العالم الإسلامي، وإذا واجهنا القوة الاقتصادية بقوة اقتصادية مقابلة فإننا سنكون مشاركين في العولمة، وليس مجرد تابعين للغير، وبالتالي سيكون لنا تأثيرنا الذي لا يمكن تجاهله على اقتصاد العولمة وتصحيح مسارها.

فالقضية- في رأينا- تدور حول أسلوب التعامل مع هذا الواقع الجديد والتفاعل معه، بطريقة سليمة. أما إذا تجاهلنا الواقع واكتفينا بعبارات الرفض والشجب والإدانة والاستنكار لأساليب الهيمنة والسيطرة وفرض النظم الغربية ... إلخ. فإننا بذلك سنظل ندور حول أنفسنا، مكتفين بدفاع الحناجر، وهذا أمر لا يرضاه مسلم عاقل، ولسنا في حاجة إلى التأكيد على أن العالم الإسلامي يملك كل أسباب القوة الاقتصادية، فهو عالم غني بموارده الطبيعية، وموقعه الجغرافي المتميز، وثروته البشرية، ولا تنقصه الكفاءات العلمية والخبرات الاقتصادية، وكل ما يحتاجه هو الإرادة الفاعلة لتحقيق الانطلاقة الاقتصادية المرجوة.

أما العولمة في المجال السياسي، فإن أبرز ما يصادفنا فيه هو الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية، والذي يفهم الإسلام فهما حقيقيا يتضح له أن الإسلام بما اشتمل عليه من قيم وتعاليم قد سبق العولمة في هذا المجال، ورسخ قيم الشورى وحقوق الإنسان والتعددية. وعلى الرغم من ذلك نجد من بين أبناء المسلمين مَن يتصدى لرفض الديمقراطية بوصفها استيرادا غربيا أو مفهوما أجنبيا.

والواقع أن الإِسلام حين قرر الشورى، فإِنه قد أرسى قاعدة مبدئية ملزمة لا يجوز التنصل منها، ولكنه في الوقت نفسه ترك للمسلمين حرية اختيار الشكل الذي تطبق فيه الشورى بما يتناسب مع كل عصر، وقد تكون الصورة المناسبة هي الصورة الحالية المتمثلة في المجالس النيابية المنتخبة انتخابا حرا مباشرا، وقد تكون صورة أخرى حسب ظروف كل عصر.

أما حقوق الإِنسان فإِن الإِسلام كان أشد حرصا على ترسيخها في النفوس وتطبيقها في الواقع. فقد كرَّم الله الإِنسان –مطلق إنسان– وساوى بين الناس جميعا بصرف النظر عن أعراقهم وأجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، وأمر بإِقامة موازين العدل بين البشر، وتمثلت مقاصد الشريعة الإِسلامية في حماية الأنفس والعقائد والعقول والأموال والأعراض. وتتصل بذلك حقوق أخرى كثيرة لم تعرفها البشرية إلا في العصر الحديث. ومن هنا فإِنه لا ينبغي أن نخشى أو أن نتخوف من تيار العولمة المطالب بالديمقراطية وحقوق الإِنسان.

أما التعددية السياسية فإِنها لا ينبغي أن تؤخذ من جانبها السلبي. فإِنه إذا كان الإِسلام قد أباح لنا الاجتهاد في أمور الدين، فمن باب أولى في أمور الدنيا، وقد وجَّه النبي ﷺ إلى ذلك حين قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» (رواه مسلم) والاجتهاد يعني وجهات نظر متعددة. وقد جعل الإِسلام للمجتهد إذا اجتهد وأخطأ أجرا واحدا، وإذا أصاب فله أجران، حفزا لنا على

الاجتهاد والتمسك به. وأوضح مثال على ذلك تعدد المذاهب الفقهية.

فالتعددية السياسية إذن ليست بدعة أو أمرا مرفوضا في الإسلام، وإنما هي وسيلة اجتهادية للوصول إلى أفضل السبل لتنمية الحياة في جميع المجالات، ولا يجوز لنا أن ننسى أن ذلك كله محوط في الإسلام بسياج منيع يتمثل في منظومة القيم الأخلاقية التي قررها الإسلام، وفي القاعدة النبوية المعروفة: «لا ضرر ولا ضرار» (رواه ابن ماجه)

وقد كان أولى بنا -نحن المسلمين- أن نكون مصدّرين لقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية. ولا ننتظر حتى يطالبنا الآخرون بضرورة الالتزام بها. فكلها قيم من صميم تعاليم الإسلام، تلك التعاليم التي ترمي إلى تحقيق الخير والمصلحة لكل الناس. ومن الأقوال المعروفة التي شاعت في تراثنا الفقهي أنه: «حيثما توجد المصلحة فثمَّ شرعُ الله»[78].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأجدر بنا نحن المسلمين، أن نكون مشاركين ومؤثرين تأثيرًا إيجابيًا في ترسيخ قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية. ومن خلال

---

(٧٨)يرجع هذا القول إلى الإمام نجم الدين الطوفي (٧١٦هـ -١٣١٦م) الذي اعتبر المصلحة مصدرا مستقلا للتشريع، راجع: نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، للدكتور حسين حامد حسان، ص ٩ وما بعدها، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٨١م. وانظر أيضا: دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣٠، ص ٩٣٦٤، الشارقة، ١٩٩٨م.

مشــاركتنا الإِيجابية نســتطيع أن يكون لنا دور فاعل في تجنب كل الســلبيات التــي تنحرف بهذه القيم عن مســارها الأخلاقى السليم. وبذلك يتجنب عالمنا الإِسلامي المخاطر التي تفرزها العولمــة فــي هــذا الصدد، والتــي تتمثــل في تدخــل المجتمع الدولــي- أو بمعنى أدق القطب الأوحد- فــي العلاقات الدولية بفــرض العقوبات المختلفة على النظم السياســية التي لا تلتزم بقيم الديمقراطية وحقوق الإِنســان والتعددية، وذلك لإِجبارها على الانصياع لقيم العولمة السياســية. وقد لا يكون هناك بأس فــي ذلــك، إلا إذا كان الأمر من جانب القــوى الدولية خاليًا من الغــرض، ومبرأ مــن ازدواجية المعايير، وبعيــدًا عن الانتقائية. ولكن التجربة غالبًا ما تثبت عكس ذلك تمامًا.

أمــا العولمة فــي المجال الثقافــي، فإِنها إذا كانــت تعني أن تكون هناك ثقافة عالمية مشــتركة، من شأنها أن تجعل الإِنسان أكثر وعيًا بالمصير المشــترك للبشرية، وأكثر إدراكًا للمخاطر التي تهددها مثل المخاطر التي تهدد البيئة، وغيرها من مخاطر أسلحة الدمار الشامل، والجريمة المنظمة والإِرهاب، والإِدمان، وأمــراض العصر، وعلى رأســها مرض الإِيدز، وما شــاكل ذلك، فــإِن هذا أمر لا أعتقد أن يكــون عليه خلاف. وإنما الخلاف في جوهره، يرجع إلى إمكانية تهديد العولمة الثقافية للخصوصيات الثقافيــة للأمم والشــعوب، بما تنطوى عليه مــن الترويج لقيم معينــة، لحضارة معينة، هــي الحضارة الغربيــة، الأمر الذي قد

يؤدي إلى تهديد هذه الخصوصيات ، بل والقضاء عليها . ولعل ذلك يمثل أهم اعتراض يُطرح على الساحة الإِسلامية ، وقد يعد أهم التحديات التي تواجه الهوية الإِسلامية .

ولكن الأمر في حاجة إلى شيء من التأمل . فالإِسلام دين متفتح لا يرفض ثقافة معينة ، لمجرد كونها أجنبية ، وإنما ينظر فيها ويفحصها بعناية ، ويأخذ ما يفيده في مسيرته الحضارية . ويؤكد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : «الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها أخذها» (سنن الترمذي بنحوه) والأثر المشهور «اطلبوا العلم ولو في الصين» ، أي ولو كان في يد من لا يدينون بدينكم ، أو بمعنى آخر ، ولو كان في أبعد مكان في الدنيا .

وقد استفاد المسلمون عندما أرادوا بناء حضارتهم من كل الثقافات التي كانت قائمة حينذاك . وفي هذا الصدد يرى الفيلسوف ابن رشد ، أن الشرع يوجب الاطلاع على كتب القدماء ، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال ، الاطلاع على كل جديد ، في مستقبل الأيام .

ويقول ابن رشد في هذا الصدد : «ننظر في الذي قالوه من ذلك ، وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم ، وسررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق ، نبهنا عليه ، وحذرنا منه وعذرناهم»[٧٩] .

---

(٧٩) فصل المقال لابن رشد، ص ١٧. في مجموع بعنوان: فلسفة ابن رشد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.

وبهـذه النظـرة النقديـة كان ابـن رشـد ينظر إلـى الثقافات الأخـرى. ونحن مطالبـون أيضًا في عصرنـا الحاضر، أن نعمل عقولنـا فيما يرد إلينـا أو يقدم لنا من ثقافات العصر. وأن نأخذ منها ما يفيدنا في مسيرتنا. فالإسلام قد جاء لمصلحة الإنسان، ولا يمكـن أن يرفـض ثقافة نافعـة فيها مصلحة للبشـر، وبهذا الموقـف النقدي يمكن لنا أن نحافظ على هويتنا الثقافية، وفي الوقت نفسه لا ننعزل عن عصرنا، ولا عن ثقافته، وإنما نتعامل معها كواقع ونتفاعل معها بصورة إيجابية، ونتجاوب مع كل ما يحقق المصلحة للمجتمع.

ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال، التفريط في خصوصيات أمتنا العربية الإسـلامية، والتي تتمثل في الدين واللغة والتاريخ والعـادات والتقاليـد الإيجابية، وما عدا ذلـك من خصوصيات غير جوهريـة، فإنها تكون خاضعة لتطـورات العصر وظروفه، حتـى بدون العولمة. ومن ذلك يتضح لنا أن العقلية الإسـلامية يفتـرض فيهـا أنها عقلية نقدية، وفي الوقت نفسـه عقلية مرنة ليسـت جامدة أو متزمتة، وتسـتند في حركتها إلى رصيد ديني وحضاري يمثل سياجًا قويًا يحمي أجيالنا من أي تيارات سلبية.

ولسـنا بدعا بين الأمم، عندما نعمل على تجنب السـلبيات التـي قـد يكون لهـا تأثير ضـار على هويتنـا الثقافيـة. فالدول الكبـرى أيضًا تعمـل على الحفاظ على هويتهـا الثقافية. ومنذ سـنوات قليلة أصدرت فرنسا تشـريعًا لحماية اللغة الفرنسية، وتحريرها من سيادة المصطلحات والمفاهيم الأجنبية.

والحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية وحماية أبناء المسلمين من خطر الذوبان في أي ثقافة أخرى، يكون بتحصينهم بثقافة إسلامية رشيدة، تحرك المياه الراكدة في مجتمعاتنا الإسلامية، وتؤدي إلى تغيير العقليات لتنطلق الأمة الإسلامية، إلى آفاق التقدم والارتقاء.

فالثقافة السكونية أو ثقافة الاجترار أو ثقافة المحفوظات والترديد- بتعبير المرحوم الدكتور زكي نجيب محمود- لن تستطيع أن تغير شيئًا من واقع هذه المجتمعات، وبالتالي لن تستطيع أن توفر أي حماية ثقافية للأجيال الجديدة، في عصر العولمة.

إن ما تحتاجه الأمة هو ثقافة التغيير والإبداع التي تستلهم قدرتها على التغيير من القانون القرآني الثابت :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)

إن الأمر بيدنا نحن المسلمين، وعلينا أن نختار لأنفسنا الطريق القويم المحقق للأهداف، وعلينا أن ندرك أن الإسلام منذ اللحظة الأولى كان ولا يزال دعوة عالمية للناس جميعًا، ومن هنا لفت نظرهم إلى وحدة الأصل الإنساني، فالناس جميعًا إخوة وإذا كانوا مختلفين في أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم، فإنهم على الرغم من ذلك، ينتسبون جميعًا إلى أصل إنساني واحد.

وهذه الاختلافات في ضوء هذه الوحدة الإنسانية الراسخة من شأنها أن تكون منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون، لا للتنازع والتخاصم والشقاق، كما يقرر القرآن الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات: ١٣)

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة عالمية إلى الأخوة الإنسانية في كل زمان ومكان. ويمكن القول بأن الإسلام يعد دين العولمة الحقيقية، وإن كان هذا القول لن يروق لفريقين على طرفي نقيض، أحدهما سيعتبر ذلك محاولة لأسلمة العولمة، وثانيهما سيعدّه دعوة إلى تغريب الإسلام. وكلا الفريقين جاهز بشعاراته لخوض معركة وهمية.

وتجنبا لسوء الفهم بحسن نية أو بسوء نية، يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى فروق جوهرية بين العولمة الإسلامية والعولمة الجديدة. فالعولمة الإسلامية هدفها نشر القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية، والحفاظ على الكرامة الإنسانية لكل البشر، وتأكيد حق كل إنسان في الحرية والمساواة، وحماية الأنفس والمعتقدات والعقول والأموال والأعراض، وإقامة موازين العدل بين الناس، وصيانة مؤسسة الأسرة، واحترام المرأة، ومنع الظلم والاستغلال في كل أشكاله وصوره.

أما العولمة الجديدة فإنه على الرغم مما تنطوى عليه من عناصر إيجابية مقبولة لا يمكن إنكارها فإنها تنطوي أيضا على استغلال وقهر للإنسان من حيث هو إنسان، من جانب الشركات العالمية الكبرى التي لا هدف لها إلا الربح على حساب كل القيم والأخلاق والمعتقدات.

وإذا كانت العولمة الجديدة تركز على حرية الفرد فإنها

تصل في ذلك إلى المدى الذي يتحرر فيه هذا الفرد من كل قيود الأخلاق والدين والأعراف المرعية، وتسعى إلى الوصول به إلى مرحلة العدمية، وفي النهاية يصبح أسيرًا لكل ما يعرض عليه، وتلاحقه به الشركات العالمية الكبرى التي تستغله أسوأ استغلال بما تنتجه وتروج له من سلع استهلاكية أو ترفيهية لا تدع للفرد مجالًا للتفكير في شيء آخر، حتى تصيبه بالخواء الداخلي. ومن هنا فإن الواجب الديني والإنساني يحتم علينا أن نشارك مشاركة فعالة ومؤثرة في العولمة الجديدة. وهذا يعني أن نعمل جاهدين على الحد من اندفاعها المدمر لجوهر الإنسان، وأن نعمل كذلك على تعديل مسارها وتقويم توجهاتها من أجل مصلحة الإنسان، مطلق إنسان، وإذا لم نفعل فإننا نكون قد تخلينا عن مسئوليتنا، وارتضينا لأنفسنا أن نجلس في مقاعد المتفرجين نشاهد ما يعرضه الآخرون علينا شئنا أم أبينا.

فهل يليق بالمسلمين في عالم اليوم- وقد بلغ عددهم خُمس سكان العالم- أن يكتفوا بموقف المتفرج في المسرح. تعجبه بعض المشاهد فتتهلل أساريره، ولا تعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطب جبينه ويمط شفتيه امتعاضا؟!

إن العالم يسير من حولنا بسرعة مذهلة، والمتغيرات على الساحة الدولية لا تكف عجلتها عن الدوران. وقد استطاع الغرب أن ينشر العولمة بإيجابياتها وسلبياتها بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية، وثورة المعلومات والاتصالات وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، والبث التلفزيوني المباشر، وامتلاك ناصية المعرفة

والمعلومـة التي أصبحت اليـوم مصدر القوة. وكل يوم يمضي يزيد من اتسـاع الفجوة بين المسـلمين وبين العالم المتقدم. ولا خلاص لنـا إلا بالأخذ بكل أسـاليب التطـور العلمي والتقنـي والحضاري، والعمل الجاد المنتج على جميع المسـتويات، والمشـاركة الفعالة في تقرير مصير هذا العالم الذي نعيش فيه، والإسـهام في اسـتعادة التـوازن المفقود فـي حضارة العصر. وإلا فلسـنا جديرين بالحياة. ولم يعد لصياح الحناجر ورفع الشعارات الجوفاء أي معنى.

لقد أضاع المسـلمون الكثير من عمر الزمن في تفاهات الأمور، والآخـرون يصارعونهم في عظائم الأمور، والغالبية من المسـلمين غيـر واعيـن بمتغيـرات العصـر، وغير مدركيـن لأبعـاد المخاطر التي تحيط بهم من كل جانب؛ لأنهم مشـغولون بقضايا هامشـية، ومهتمون ببعض المظاهر الشـكلية في الديـن، والآخرون يزلزلون في جذورهم وهم لا يشعرون.

إن الأمـر جد خطيـر، وعلى مفكري المسـلمين فـي كل مكان ألا يكفـوا عـن الدعوة إلى إيقـاظ النائمين وتنبيـه الغافلين لتنهض الأمة وتشـارك في مسيرة التقدم على المستويين المادي والروحي، وتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم.

والأمل كبير في أن تجتاز الأمة الإسـلامية أزمتها الراهنة، وتكلل جهود المخلصين من أبنائها بالنجاح، من أجل غدٍ مشـرق تنعم فيه الأمة كلها بالأمن والاسـتقرار والتقدم والازدهار، وتشـارك بفاعلية في سلام هذا العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

الفصل الثالث
الجانب الحضاري في الإسلام
والفرائض الغائبة

أولاً : العقيدة والشريعة في الإِسلام والفرائض الغائبة .

ثانيًا : دور الإِسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين

.

تمهيد:

لعلـه قـد اتضحـت لنا –مـن خلال مـا عرضناه فـي الفصل الثانـي– بعـض مظاهـر الجمود الـذي حل بالفكر الإِسـلامي، وبصفة خاصة في مجال العلوم الإِسلامية التي لا تزال حتى اليوم تـدرس بالطريقة ذاتها التي كانت تـدرس بها منذ قرون دون أي تجديد يذكر أو أي إضافة تثري ما لدينا من تراث علمي موروث لا نزال نجتر منه حتى اليوم.

وقد سـاعد على هـذا الجمـود تقديس المؤلفـات التراثية، وغياب الدراسات النقدية في مجال العلوم الإِسلامية، والحرص على التقليد والمحاكاة، ومعرفة الحق بالرجال وليس العكس. ولـم تفلح جهود بعض المفكريـن الرواد حتى اليوم في تحطيم هذه العقبات إلا في أقل القليل.

ولست أزعم أنني سأستطيع أن أحطم شيئًا من هذه العقبات، وإنما حسـبي أن أنبه إلى ما أعتقد أننـا يمكن أن نفعله من أجل الخروج من هذا النفق المظلم الذي حوصر فيه فكرنا الإِسلامي المعاصر. وهذه قضية قد تختلف فيها الآراء، وهذا أمر مطلوب بطبيعة الحال ونرحب به كل الترحيب.

وفـي الصفحـات التاليـة يهمنا أن نشـير فـي هذا الصـدد إلى الجانـب الحضاري في الإِسـلام، وأن ننبه إلـى الفرائض الغائبة في عالمنا الإِسلامي والتي تسبب غيابها في هذا الذي وصلنا إليه حتى اليوم من تحجر فكرى وإصرار على ثقافة التلقين والاجترار.

والله ولى التوفيق.

أولًا: العقيدة والشريعة في الإسلام والفرائض الغائبة

الإسلام عقيدة وشريعة:

غني عن البيان أن نؤكد أن تجديد الفكر الإسلامي المعاصر يتطلب ضرورة التذكير بقيم الإسلام وتعاليمه التي تناساها -بمرور الزمن- جمهور كبير من أبناء المسلمين أو أساءوا فهمها على وجهها الصحيح. وقد زاد الطين بلة مزاعم بعض الفئات من أبناء المسلمين -الذين يحرصون على أن يتميزوا في مظهرهم عن الآخرين- بأنهم وحدهم المتمسكون بالعمل بما كان عليه النبي ﷺ والصحابة والتابعون من بعده، وأنهم الفرقة الناجية التي تحدث عنها النبي ﷺ(٨٠). وأصبح الجهاد بالسلاح لدى بعض الفئات ضد مخالفيهم في الرأي من المسلمين أمرًا مشروعًا يتقربون به إلى الله، الأمر الذي يذكرنا بالخوارج في العصر الأول للإسلام(٨١).

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى إلحاق الضرر بالإسلام ذاته في داخل المجتمعات الإسلامية وفي خارجها أيضًا، وبخاصة أن غير المسلمين يحكمون على الإسلام من واقع سلوك المسلمين

---

(٨٠) لقد سمعت بعضهم في أحد البرامج التليفزيونية في قناة دينية يشرح فيها الحديث النبوي القائل: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» ولما سئل النبي عن هذه الفرقة الناجية قال: ما أنا عليه وأصحابي، وزعم هذا المتحدث أن الطائفة التي ينتمي إليها هي الفرقة الناجية المعنية.

(٨١) لقد قتل بعضهم عبد الله بن خباب بن الأرت وقتلوا امرأته وبقروا بطنها وهي حامل لا لذنب إلا لأنه لما سئل عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ذكره بخير.

على أســاس أن هذا السلوك ما هو إلا ترجمة لتعاليم هذا الدين، وهذا حكم خاطئ بطبيعة الحال وفهم مغلوط للإِسلام.

وحتى يتســنى للغيورين على الإِســلام أن يبذلوا جهدهم في تغيير الصورة الســيئة التي انتشرت عن الإِسلام لدى المسلمين وغير المسلمين فإِن الأمر يتطلب إعادة النظر في فهمنا للإِسلام، وإزالة ما تراكم بمرور الزمن على مرآة هذا الدين من غبار كثيف من الفهم الســقيم والتقاليد البالية والعادات السيئة، حتى تعود هذه المرآة مرة أخرى في عقول المسلمين نقية صافية مبرأة من كل ما لا يمت إلى جوهر هذا الدين بأي صلة.

لقــد درجنــا علــى ترديــد القــول بــأن «الإِســلام عقيــدة وشــريعة»[٨٢]، وهذا الشــعار حــق، ولكنه -في رأينــا- لا يعبر تمامًــا عن فهم تكاملي للإِســلام. ومن أجل ذلــك نعتقد أن هذا الشــعار -الذي يوضح ما هو الإِســلام- وبخاصة في هذا العصر الذي صار فيه التدين لدى جمهور كبير من المســلمين شــكليًا ومنقوصًا- أصبح في حاجة ماســة إلى تعديل لإِعادة التوازن بين العناصر التي يشــتمل عليها الإِسلام في حقيقته. وهذا التعديل الــذي نقترحه يكون بإِضافة عنصرين أساســيين هما: الأخلاق والحضارة، وهذه الإِضافة ضرورية لسببين أولهما:

● إعــادة التــوازن المفقود في فهم الإِســلام على نحو يجعل

---

(٨٢) للإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت كتاب بعنوان: الإسلام عقيدة وشريعة -ط٢٩- دار الشروق ٢٠٠٧م.

التكامل بين عناصره واقعًا حيا يعيشه المسلم في حياته ويتعامل من خلاله مع الآخرين في المجتمع، وعند حديثنا عن الشريعة سنزيد هذا الأمر إيضاحًا.

● أما السبب الثاني: فهو التأكيد على التذكير بالفرائض الغائبة في عالمنا الإسلامي، وهذا ما سيتضح أيضا من خلال شرحنا لكل عنصر من هذه العناصر الأربعة في السطور التالية.

العقيدة:

أ- أما العنصر الأول وهو العقيدة فإن مما لا شك فيه أن العقيدة الدينية في الإسلام تعبر عن علاقة مباشرة بين الله والإنسان لا تحتاج إلى أي شكل من أشكال الوساطة بين الخالق والمخلوق، ولا يطلع عليها إلا عالم الغيب والشهادة. ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى في العديد من الآيات،

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:

﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ (غافر: ٦٠)

وقوله تعالى أيضًا:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ (البقرة: ١٨٦)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦)

ومن الأحاديث النبوية : «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (مسند أحمد) . . . إلى آخر الحديث.

ومن المعلوم -كما جاء في الحديث الشريف أيضًا أن «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» (مسند أحمد)، ومن هنا يؤكد القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

ولا شك في أن تصحيح هذه الصلة المباشرة بين الله والإنسان تعد البداية الحقيقية لغرس ثقة الإنسان في الله وفي عدله وحكمته، وهذه الصلة قائمة منذ بدء الخليقة . فالله سبحانه وتعالى عندما خلق آدم من طين وسواه، نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، ومن هنا فكل بني آدم له نصيب من هذه النفخة الروحية الإلهية التي تشكل الصلة المباشرة بين الله والإنسان، وتتجلى هذه النفخة الروحية الإلهية في المقام الأول في العقل الإنساني. فطريق الإسلام إذن طريق واضح تمام الوضوح، وعلينا أن ننقي هذه العلاقة بين الله والإنسان من كل ألوان الوسائط سواء من البشر أو الجن أو أي وساطة أخرى يمكن تصورها.

أما العناصر التي تتألف منها العقيدة الدينية في الإسلام فلا تحتاج هنا إلى توضيح، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى آيتين كريمتين فقط -وكلاهما في سورة البقرة- لتتضح لنا

هذه العناصر . أما الآية الأولى فهي قوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾

(البقرة : ٢٨٥)

الآية الأخرى :

﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(البقرة : ١٧٧)

وبقية الآية تتحدث عن التكاليف المترتبة على هذا الإيمان .

الشريعة:

ب- أما العنصر الثاني من الشعار الذي أشرنا إليه فيتمثل في الشريعة . ومفهوم الشريعة غير واضح المعالم في أذهان الكثيرين من أبناء الأمة ، فالبعض يفهم الشريعة على أنها الفقه الإسلامي بما يشتمل عليه من تفصيل القول في العبادات والمعاملات ، ومنهم من يختزلها في تطبيق الحدود ، ويتردد ذلك كثيرًا على ألسنة فريق كبير من المطالبين بتطبيق الشريعة ، ولكن هذه الأفهام قاصرة عن استيعاب المعنى الحقيقي لمفهوم الشريعة ، ومن هنا فإن الأمر يحتاج إلى توضيح يزيل اللبس القائم في هذا الصدد[٨٣] .

---

(٨٣) نعتمد هنا على ما سبق أن كتبناه في كتابنا: مقاصد الشريعة الإسلامية=

إن الشريعة الإسلامية في أوسع معانيها تعني الدين الذي جاء من عند الله، ويؤكد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (الشورى: ١٣)

ومن هنا عرف بعضهم الشريعة بأنها: «ما سنه الله لعباده من الدين وافترضه عليهم». ويمكن تأسيسًا على ذلك تعريف الشريعة على نحو أكثر تفصيلًا بأنها: «عبارة عما جاءت به الرسل من عند الله بقصد هداية البشر إلى الحق في الاعتقاد، وإلى الخير في السلوك والمعاملات»، وبهذا المعنى يشمل مفهوم الشريعة الجوانب الاعتقادية والأخلاقية والعملية. وبذلك تنظم الشريعة صلات الإنسان المتعددة في ثلاث دوائر: أولها صلة الإنسان بنفسه، وثانيها صلته بخالقه، وثالثها صلته بمن حوله وما حوله من بشر ونبات وحيوان وجماد. ولا شك في أن مسئوليات الإنسان في هذه الحياة تتوزع على هذه الدوائر الثلاثة. والشريعة من شأنها أن تعينه على تحمل هذه المسئوليات والوفاء بحق هذه الالتزامات التي تكفل له السعادة في الدنيا والآخرة. ومن خصائص هذه الشريعة أنها

=وضرورات التجديد -من سلسلة قضايا إسلامية- نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ٢٠٠٣م ص١٩ وما بعدها.

ربانية المصدر وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وأنها تقوم على التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم وأن الجزاء فيها دنيوي وأخروي في الوقت نفسه.

وعلى الرغم من وضوح معنى الشريعة على النحو الذي بينا فإن هناك كثيرين يخلطون بين الشريعة والفقه الإسلامي. وقد استقر هذا الفهم في أذهان الكثيرين منذ قرون نتيجة لعصور التخلف التي طرأت على المسلمين بعد تراجع الحضارة الإسلامية. والفرق بين الشريعة والفقه الإسلامي مثل الفرق بين السماء والأرض، وبين ما هو إلهي وما هو بشري.

وقد أدى هذا الخلط إلى إضفاء طابع القداسة على آراء الفقهاء السابقين لدرجة جعلت بعضهم يعتقد أن الخروج على هذه الآراء يعد خروجًا على الدين نفسه. وتمسك هؤلاء بإغلاق باب الاجتهاد ومنع رحمة الله الواسعة في التيسير على العباد.

وقد كان الفقه يقصد به في البداية جميع الأحكام الدينية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية في أمور العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، كما ورد أيضًا عن الإمام أبي حنيفة أن الفقه هو «معرفة النفس ما لها وما عليها»، وهذا يشمل جميع المعاني المشار إليها. ويؤيد هذا الفهم للفقه قول القرآن الكريم:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾

(التوبة: ١٢٢)

ولكـن حدث تطور في معنى الفقـه جعله يقتصر على «العلم بالأحكام الشـرعية العملية من أدلتها التفصيلية بالاستدلال». وبذلـك خـرج مـن مفهومـه الأحـكام الاعتقاديـة والأخلاقيـة وصـار مدلولـه قاصرًا على الأحـكام العملية أي علـى العبادات والمعاملات[٨٤].

أما اختزال الشـريعة في تطبيق الحدود فهذا جهل بالشـريعة وظلم للإسـلام ذاته. فالحدود في الإسلام لا تتعدى نسبة ٥٪ من الشريعة، وتطبيقها محاط بسياج منيع من الضمانات والضوابط الصارمـة لإقامـة العدل بيـن النـاس. والتنفيذ تقوم بـه الجهات المخولة بذلك بعد صدورٍ الأحكام القضائية في هذا الشأن.

ولا صلـة لذلك إطلاقـا بما حدث في بعض المناطق في مصر في الفترة الأخيرة، وشـاهده الجمهور على شاشات التلفزة من حفـلات أقامها بعـض الأهالي لتنفيذ ما زعمـوه حد الحرابة من سـحل وقتل وتمثيل بالجثث أو تعليقها على جذوع الأشـجار، فهـذا كله عبث وفوضى ومرفوض جملة وتفصيلًا من الإسـلام، ويعد من أعظم الإساءات للإسلام.

جـ- العنصر الثالث: الأخلاق:

أمـا العنصر الثالـث وهو الأخلاق فإن النبـي ﷺ قد أكد في حديث شـريف على جوهرية الأخلاق في دعوة الإسـلام بقوله:

(٨٤) المرجع السابق ص٢٣ وما بعدها. وبالهوامش مراجع أخرى اعتمدنا عليها أيضا.

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٨٥] . وقد أثنى القرآن الكريم على حسن خلق النبي الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم : ٤)

فهو النموذج والقدوة لكل مسلم في أخلاقه الحميدة وشمائله الشريفة ، ومن أحاديثه النبوية في هذا الصدد قوله : «إن أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا» (كنز العمال) وقد كان ﷺ قمة في الأخلاق في كل تعاملاته مع كل الناس كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونسائهم ، وكان بسامًا ضاحكًا –كما قالت عنه السيدة عائشة– يمزح مع الآخرين ولا يقول إلا حقًا ، بعيدًا عن كل شكل من أشكال الفظاظة أو الغلظة في التعامل . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾

(آل عمران : ١٥٩)

فما بالنا اليوم نجد بعض المتدينين يتعاملون مع غيرهم ممن يعتقدون أنهم يخالفونهم في الرأي أو الطبع بكل غلظة وفظاظة . أليس الأجدر بهؤلاء أن يقتدوا برسول الله ﷺ في

---

(٨٥) رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد، كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة بلفظ (لأتمم صالح ...)

أخلاقه وسلوكه، فقد أرسله الله رحمة للعالمين، لكل الناس مسلمين وغير مسلمين؟! أليس من الغريب حقًا أن البعض لا يريد أن يهنئ جاره غير المسلم بأعياده، ولا يريد أن يصافحه في حين أن محمدًا ﷺ قام واقفًا احترامًا للميت عندما مرت به جنازة يهودي، ورد على من أبدى اعتراضًا على ذلك بقوله: أليست نفسًا؟

وخلاصة القول: إن الأخلاق تعد روح التدين وجوهره، فإذا خلا التدين من هذه فقد تم تفريغه من مضمونه. ولا يعتد بأي تدين مزعوم لا يتسلح بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة التي يزخر بها القرآن الكريم والسنة النبوية. وإذا كان الله سبحانه قد أرسل محمدًا رحمة للعالمين فهذا يبين لنا أن الرحمة على رأس هرم الفضائل والقيم في الإسلام، ويفسر لنا حديث النبي الذي أشرنا إليه والذي يقول فيه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (مسند البزار)، ويؤكد في الوقت نفسه أن الأخلاق عنصر أساسي في المنظومة الإسلامية. وهذا كله يدعم ما ذهبنا إليه من ضرورة إضافة الأخلاق لتكون العنصر الثالث في الشعار الإسلامي المشار إليه.

د- العنصر الرابع: الحضارة والفرائض الغائبة:

أما العنصر الرابع الغائب في دنيا المسلمين فهو الحضارة. ونحن نزعم أن مشكلة المسلمين في عالم اليوم مشكلة حضارية في المقام الأول، فكل الدول الإسلامية التي يشكل سكانها

حاليًا أكثر من خمس سكان العالم مندرجة تحت عنوان الدول النامية وهذا تعبير مهذب في وصف الدول المتخلفة، بعد أن كانت الأمة الإسلامية قائدة العالم كله في العصور الوسطى من الناحية الحضارية.

أما ما يراه المرء هنا أو هناك في عالمنا الإسلامي المعاصر من قشرة حضارية فهذا لا يعني التحضر. فإذا كان المسلمون يتمتعون في بلادهم بثمار الحضارة المعاصرة ويستهلكون ما تنتجه من وسائل متعددة فإن ذلك يؤكد أن المسلمين قد أصبحوا زبائن دائمين في سوبر ماركت الآخرين. أما التحضر الحقيقي فإنه ينبع من الداخل ولا يمكن استيراده.

ولا نريد هنا بطبيعة الحال أن نكون متشائمين إلى الحد الذي يجعلنا عاجزين عن إبداع حضارة إسلامية جديدة، وإنما الهدف هو أن نفتح عيوننا وعقولنا من جديد على قيم الإسلام الحضارية لتبعث في نفوسنا الأمل وتغرس في عقولنا الثقة في قدرتنا على بناء حضارتنا من جديد حتى لا نظل في إطار التبعية للآخرين، ونحن بذلك لا نحلق في دنيا الأوهام وإنما نقف على أرض صلبة من قيم الإسلام الحضارية التي على أساسها أقام المسلمون في السابق حضارتهم الزاهرة[٨٦].

وفي إيجاز شديد نشير إلى أن الحضارة في الإسلام تعد

---

(٨٦) لمزيد من التفصيل يراجع كتابنا: الحضارة فريضة إسلامية. مكتبة الشروق ٢٠٠١م.

فريضة إسلامية لا تقل في أهميتها عن فريضة الصلاة والصيام. وإذا كان القــرآن الكريــم يتحدث عن التمكين للمســلمين في الأرض، وهــذا -في رأينــا- يعنى تحقق الحضارة - فإن ذلك من شــأنه أن يمهد الســبيل لإقامة شعائر الإســلام. وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

(الحج: ٤١)

وفضــلًا عن ذلك فإن الأمر بالتكليــف الإلهي ببناء الحضارة قد جاء واضحًا صريحا في قوله تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١)

أي طلــب منكــم عمارتهــا ماديــا وروحيا[٨٧]، وهــذا يعني بالتعبيــر الحديث: طلب منكم صنع الحضــارة فيها. وإذا كان الطلب صادرًا من الله فلا بد من الاســتجابة لهذا الطلب. فالأمر ليــس مندوبًــا ولا مســتحبًا، وإنما هــو بــكل المقاييس فريضة إســلامية -كمــا ســبق أن أشــرنا-، وتعــد الحضــارة على رأس الفرائض الغائبة لدى المسلمين في عالمنا المعاصر.

---

(٨٧) يشــير ألبرت شفيتسر في كتابه (فلسفة الحضــارة) إلى أن الحضارة بصفة عامة هــي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء ص٢٠ - وهذا يتفق مع ما أشرنا إليه - ترجمة د. عبد الرحمن بدوي. دار الأندلس ١٩٨٠م.

التفكير والعلم:

إن تقدم الأمة الإسلامية وجعلها أمة رائدة في عالمها قد وعد الله به المؤمنين الصادقين في قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

(النور: ٥٥)

وقد تحققت هذه الوعود الإلهية بالفعل في فترات سابقة، وشهدت الأمة الإسلامية ازدهارًا حضاريًا غير مسبوق، واستفادت الأمم الأخرى، وبخاصة في العالم الأوروبي من إنجازات المسلمين الحضارية، وكان ذلك الازدهار الحضاري نتيجة لتحقق شروط أساسية تعد ركائز لأي تقدم حضاري وهي: التفكير والعلم والحضارة، وأعتقد أن هذه الثلاثية المترابطة هي من الفرائض الغائبة في عالمنا الإسلامي وقد أدى غيابها إلى التدهور الحضاري الراهن. فالتفكير يعد فريضة إسلامية[٨٨]، وهو وظيفة العقل الإنساني الذي هو أفضل النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، واستخدام العقل مسئولية سوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة، كما جاء في القرآن الكريم:

---

(٨٨) لقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب.

﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾
(الإسراء: ٣٦)

ومـا دام التفكيـر علامـة على اسـتخدام العقـل فهو واجب أساسي على كل مسلم وهو بالتالي فريضة إسلامية. ولننظر إلى ختام الآية التالية ليتضح لنا مدى اهتمام القرآن الكريم بفريضة التفكير. يقول الله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣)

ومن هنا كان الأستاذ عباس محمود العقاد موفقًا عندما جعل عنـوان أحد كتبـه القيمة (التفكيـر فريضة إسـلامية)، وكان الفيلسـوف العظيم ابن رشـد على صواب كذلـك عندما اعتبر التفكيـر أو ما أطلـق عليه النظر العقلي فـي الموجودات واجبًا شرعيًا.

أمـا الفريضة الغائبة الثانية فهي العلم. والعلم بنص الحديث الشريف فريضة على كل مسلم ومسلمة[٨٩]. والعلم المقصود هنا هـو العلم بجميـع أبعاده، وليـس العلم الدينـي فقط الذي يجعلـه القـرآن الكريم مـن اختصاص طائفة من المسـلمين في قوله تعالى:

(٨٩) رواه مسلم بلفظ (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ولفظ مسلم هنا يشمل الرجل والمرأة. أما ابن ماجه فقد رواه بلفظ (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)

﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾

(التوبة: ١٢٢)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن التكليف الإلهي بإعمار الأرض يجعل من الحضارة فريضة إسلامية، ومن الواضح أن الترابط بين عناصر هذه الثلاثية ترابط وثيق لا ينفصم إذا أريد الوصول إلى النتائج المرجوة والتي تتمثل في البناء الحضاري المأمول. فلا توجد حضارة بدون علم ولا يوجد علم بدون تفكير ولا يوجد تفكير بدون عقل، وقد كان الإسلام دافعًا وداعمًا لكل إنجاز حضاريٍ حققه المسلمون في السابق، ولا يزال الإسلام وسيظل مؤهلًا لبناء حضاري جديد يعيد للمسلمين أمجادهم بشرط أن تستيقظ الأمة من سباتها وتبذل قصارى جهدها لتحقيق الأهداف المرجوة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾

(الرعد: ١١)

وإذا كان هناك من يتحدثون اليوم عن أن الجهاد بمعنى حمل السلاح وفرض الإسلام على الآخرين هو الفريضة الغائبة في عالم اليوم فهم واهمون، فالإسلام لم يطلب فرض الإسلام على أحد، فلا إكراه في الدين، ولكن هناك من سيقول: إن الآيات القرآنية التي تشير إلى عدم الإكراه في الدين قد نسخت بحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (رواه البخاري ومسلم)

وهذا جهل بالدين. فكيف يمكن لحديث شريف أن ينسخ آية قرآنية محكمة؟ وقد سبق أن أشرنا إلى ضرورة إعادة النظر في قضية النسخ في القرآن حفاظًا على قدسية هذا الكتاب الذي :

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤٢)

إن الجهاد المطلوب اليوم هو رد العدوان، وهو في المقام الأول جهاد حضاري يقوم على الأسس التي أشرنا إليها لتحقيق الوعود الإلهية التي سبق أن تحققت عندما توفرت شروط تحقيقها، ومن هنا فإن الأولوية اليوم تكون لإحياء التفكير الحضاري الذي يعد من قبيل التسابق في الخيرات الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:



(البقرة: ١٤٨)

ومن أجل ذلك نريد في الصفحات التالية أن نفصل القول –حسبما يسمح به المقام– في دور الإسلام في دعم وتطوير الفكر الحضاري.

ثانيا: دور الإسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين[٩٠]

١- تمهيد:

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الحضارة بصفة عامة تعني التقدم المادي والروحي للأفراد والجماعات. وقد قامت الحضارة الإسلامية بالفعل على هذين الأساسين: الأساس الروحي والأساس المادي. وأي حضارة لا تعتمد على هذين الأساسين أو تكتفي بأساس واحد منهما لا يمكن أن تسمى حضارة. وإذا أطلق عليها مصطلح الحضارة تجاوزًا فهي إما أن تكون حضارة عمياء أو حضارة عرجاء.

والحضارة -أى حضارة- لا تنشأ من فراغ، فمن الضرورى أن تكون هناك دوافع قوية تحفز البشر إلى العمل بجد ونشاط من أجل تحقيق هذا التقدم المادي والروحي للأمم والشعوب.

ومن المعروف أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا الحضارة بالمعنى المشار إليه، فلم يكن لديهم ما يمكن أن يوصف بأنه علم أو فلسفة أو حضارة.

---

(٩٠) سيلاحظ القارئ الكريم فيما يلي بعض التكرار لبعض الأفكار التي سبقت الإشارة إليها قبل ذلك، وبخاصة التأكيد على مفاهيم العقل والحضارة والتفكير والعلم، ولكن السياق في الحالتين مختلف. ومن ناحية أخرى فإن موضوع «دور الإسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين» -الذي نعرضه في الصفحات التالية- كان في الأصل محاضرة ألقيناها سابقا. وقد اختصرناها لتتلاءم مع موضوعنا هنا وألحقناها بالفصل الأخير من هذا الكتاب نظرًا لوحدة الموضوع، وتأكيدًا للأفكار التي عرضناها في الصفحات السابقة.

٢- دور الإسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين:

وبعد ظهور الإسلام تغير الأمر تمامًا، وتبدلت أحوال العرب بصفة خاصة وأحوال المسلمين في كل مكان بصفة عامة بشكل غير مسبوق في التاريخ، فقد بعث الإسلام فيهم حياة جديدة، ونقلهم إلى أفق فسيح من العلم والمعرفة، وجعلهم مؤهلين لإقامة صرح دولة عظمى تمتد من أقصى الصين شرقًا إلى أقصى الأندلس غربًا. وفي ظل تعاليم الإسلام ازدهرت العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها، وأسهم المسلمون في الجهود الحضارية بكل طاقاتهم وأصبحت لهم حضارة تحمل طابعهم وتميزهم عن غيرهم، ولم يكن ذلك كله يمكن أن يحدث إلا إذا كانت تعاليم الإسلام تشتمل على العناصر الأساسية لهذا التحول العظيم، وقد كان حجر الأساس في هذا البناء الجديد يتمثل في نظرة الإسلام إلى الإنسان، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض مصداقًا لقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

وقد فضله الله على كثير من مخلوقاته، وكرمه أعظم تكريم، كما تعبر عن ذلك آيات عديدة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٠)

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة. فهي حماية إلهية للإنسان تنطوي على احترام حريته وعقله وفكره وعقيدته، فضلا عن دمه وماله وعرضه، وتعني في النهاية الحرية الحقيقية، وهي تلك الحرية الواعية المسئولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال كما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

(الأحزاب: ٧٢)

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكليف والمسئولية فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون كله ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية والعقلية على السواء، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

والتفكر الذي تنص عليه هذه الآية هنا أمر جوهرى لاينبغي أن يغيب عن الأذهان فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه

أن يتخذ لنفسه منه موقفًا إيجابيا، وإيجابيته تتمثل في تأمل هذا الكون ودراسته والنظر فيه للإفادة منه على جميع المستويات بما يعود على البشرية بالخير، والإفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون لا تكون إلا بالعلم بمختلف أبعاده. والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدي إلى الرقي المادي وإلى الرقي الروحي في الوقت نفسه.[٩١] وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)

وهذا كله من شأنه أن يدفع الإنسان دفعًا إلى العمل على بناء حضارة راسخة الأركان شامخة البنيان، وكأنه سيعيش في الدنيا أبدًا ولكنه في الوقت نفسه لا ينسى العمل من أجل آخرته وكأنه يموت غدًا، كما يعبر عن ذلك الأثر الإسلامي المشهور «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»، فالجهد البشرى في نظر الإسلام يجب أن يتوزع بين هذين الجانبين في توازن حقيقي كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧)

---

(٩١) راجع كتابنا: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص٣٠ وما بعدها- دار الفكر العربي ٢٠٠٣م القاهرة.

ومن خلال هذه التوجيهات القرآنية يتضح لنا بصفة عامة مدى جوهرية دور الإسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين، فالقرآن الكريم لم يتعامل مع القضية الحضارية على أنها قضية هامشية، بل جعل من الحضارة فريضة إسلامية لا تقل في أهميتها عن أي فريضة أخرى، وهذا ما سنحاول فيما يلي إبرازه في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية:

أ-عود على بدء:

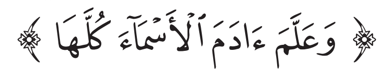
لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسالات الإلهية للبشرية. من أجل ذلك اقتضت حكمته أن تشتمل تعاليم القرآن الكريم على كل ما يؤهل المسلمين بصفة خاصة ليكونوا روادًا حقيقيين في مجالات العلم والحضارةحتى يقدموا للبشرية ثمار ما استلهموه من أصول دينهم في القرآن الكريم والسنة النبوية.

من هنا كانت بداية الوحي الإلهي على محمد ﷺ عودًا على بدء، ومعبرة أصدق تعبير عن هذه الخطة الحضارية المتكاملة، وهذا ما نجده في الآيات الخمس الأولى من الوحي القرآني، والتي تشتمل على الأمر بالقراءة مرتين، والتأكيد على أهمية العلم وتدوينه، ودور الإنسان المكلف بحمل أمانة هذا العلم، وكل هذا في ارتباط وثيق بخالق الكون والإنسان والعلم جميعًا:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ١-٥)

فالقــرآن الكريم إذن يخط الطريق بوضوح تام أمام الإنســان لاســتخدام كل ملكاته العقلية لقراءة متأنية للكتاب المســطور وهو القرآن الكريم، و لقراءة متأنية أيضًا للكتاب المنظور وهو الكون الذي خلقه الله ليكون الميدان الذي يصول فيه الإنســان ويجول من أجل بناء حضاري يقدم الخير للبشرية جمعاء.

ويلفــت القرآن الكريم الأنظار إلى أن الله عندما أراد أن يهبط آدم عليــه الســلام على الأرض ســلحه بالعلم الذي يســتطيع من خلاله تمهيد الأرض وإعمارها - كما جاء في القرآن الكريم- :



(البقرة: ٣١)

والمقصود أن الله قد أعطاه مفاتيح العلم، وعليه عندما يهبط إلــى الأرض أن يجتهــد هــو وذريته إلى يوم القيامة في اســتخدام هذه المفاتيح لفتح مغاليق هذا العلم والكشــف عن أســرار هذا الكــون، وهــذا الأمر لن يتحقق إلا باســتخدام الإنســان لكل ما منحه الله له من ملكات عقلية وقدرات علمية.

ولــم يقتصر القرآن الكريم فــي دعوته على فتح خزائن العلم والكشف عن أسراره في مجال واحد، بل فتح أمام الإنسان الباب علــى مصراعيه ليتدبر الكــون كله ويفكر ويبحث وينقب حتى يهتدي إلى كل ما ينفعه في دينه ودنياه. فالسموات والأرض وما بينهما مســخرات للإنســان الذي جعله الله خليفته في الأرض، والكون كله ميدان للبحث العلمي بلا قيود ولا سدود. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي سبق أن أشرنا إليها:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣)

فآيات الله مبثوثة في كل مكان في هذا الكون الكبير، والذين يفلحون في الوصول إلى أهدافهم في الكشف عن بعض هذه الآيات هم هؤلاء الذين يستخدمون كل إمكاناتهم العلمية وقدراتهم العقلية بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية أو العرقية أو غيرهم. فكل من يفكر ويبحث ويدرس ويتعمق في بحثه ودراسته سيصل حتمًا إلى الأهداف المرجوة. وهذا أمر واضح أمامنا في عالم اليوم الذي يشهد كل يوم تقريبًا اكتشافات علمية مذهلة في جميع المجالات.

ب- الحضارة فريضة إسلامية:

ومن خلال هذه الشواهد القرآنية يتضح لنا أن الإسلام قد فتح باب البحث العلمي بلا حدود أمام الإنسان في كل زمان ومكان. فالكون كله ميدان فسيح لكل من يفكر ويبحث وينقب لتحقيق مقصود القرآن الكريم في إعمار الكون وصنع الحضارة فيه. والحضارة المعنية هنا هي الحضارة بكل أبعادها المادية والروحية كما سبق أن أشرنا في تعريف الحضارة، ويتضح لنا أيضًا أن الحضارة تعد تكليفًا إلهيا وأمرًا ربانيًا كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١)

وطلب عمارة الأرض صادر من الله للإنسان ولا يجوز أن يفهم على أنه أمر مندوب إليه فقط أو أمر ثانوي في منطق الإسلام فالأمر بإعمار الأرض بمعنى صنع الحضارة فيها ما دام تكليفًا إلهيًا فهو أمر واجب التنفيذ، وبالتالي فهو يندرج تحت مفهوم الفريضة- كما سبق أن أشرنا إلى ذلك – ومعلوم أن الحضارة أو إعمار الأرض بالتعبير القرآني لا تقوم إلا على أساس من العلم، والعلم بنص الحديث الشريف: «فريضة على كل مسلم ومسلمة» والحضارة التي يتوقف بناؤها على العلم تأخذ الحكم ذاته. وتعد أيضًا فريضة إسلامية، فما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب.

ج- مفهوم العلم في الإسلام:

والإسلام عندما يهتم بالعلم ويرتفع به إلى درجة الفريضة فإنه يعني العلم بجميع أبعاده وليس العلم الديني فقط، فالعلم الديني- كما جاء في القرآن الكريم – تتكفل به طائفة من الأمة وليس كل أمة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾

(التوبة: ١٢٢)

أما بقية طوائف الأمة فعليهم أن يهتموا بالعلم بجميع أبعاده ليبنوا حضارة تمكن المسلمين في الأرض حتى يكونوا قدوة لغيرهم من الأمم وعلى المسلمين أن يطلبوا العلم ولو كان

فـي الصيـن بمعنى : حتى ولو كان في أبعد مـكان في الدنيا ، أو حتى لو كان لدى من لايدينون بدينكم ، فالعلم قسـمة مشتركة بيـن الناس جميعًا ، وقد حض الإسلام على طلب العلم ، وجعل للسـاعين في طلبه والحـرص عليه ثوابًا عظيمًـا عند الله- كما جاء في الحديث الشـريف :«من سـلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سـهل الله له طريقا إلى الجنـة»[٩٢] ، «والملائكة تضع أجنحتها لطالـب العلم رضا بمـا يصنع» . (رواه أحمد وابـن ماجه) كما جعل الإسلام مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء ، فالشهداء إذا كانـوا يدافعون عن أمتهم بدمائهـم فالعلماء يدافعون عن أمتهم بعقولهم وفكرهم ، ويسهمون في تنمية وتطوير بلادهم .

وقد أثبت المسلمون في السابق أنهم لم يكونوا منغلقين إزاء الحضارات السـابقة ، وإنما كانوا منفتحين ، وأفادوا من التراث الإنسـاني في جميع المجالات . فالتراث الإنساني أخذ وعطاء ، ولا تجـد أمة عريقة فـي التاريخ إلا وقد أعطـت كما أخذت من التراث الإنسـاني ، والقرآن الكريم حثنا على السـير في الأرض ودراسة أحوال الأمم السابقة والإفادة من دروس التاريخ :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(يوسف : ١١١)

(٩٢) -رواه الترمـذي (راجع: فيض القدير شرح الجامع الصغـير للإمام المناوي)جـ ٦دار المعرفة - بيروت ١٩٧٢م/ ١٣٩١هـ.

وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد يرى أن الاطلاع على كتب السابقين واجب شرعًا، ويقول: « فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منهم غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » (٩٣) .

د- دور العقل في الإبداع الحضاري:

وليس هناك من شك في أن العقل الإنساني يعد الأساس المكين في كل بناء حضاري، فهو الذي يتأمل في الكون ويتعمق في دراسته، وهو الذي يبدع في كل مجالات العلوم والفنون.

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالعقل اهتمامًا بالغًا، وقد حرص الإسلام حرصًا شديدًا على تمكين العقل من أداء دوره كاملًا في الحياة. فالعقل نور من نور الله ويتضح لنا ذلك مما ورد في القرآن الكريم متعلقًا بخلق الإنسان بعد أن خلق الله آدم أبا البشر من الطين، أى من مادة، نفخ الله فيه من روحه ، كما يقول سبحانه مخاطبًا الملائكة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٩)

فالعقل أثر من آثار هذه النفحة الربانية والتي من أجلها طلب الله من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريمًا له، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(٩٣) – فصل المقال لابن رشد ص١٧(ضمن كتاب : فلسفة ابن رشد) دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢م.

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الذين لا يستخدمون عقولهم بأنهم قد تخلوا عن إنسانيتهم وارتضوا لأنفسهم أن يكونوا في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل وعدم تمكينه من أداء دوره خطيئة من الخطايا وذنبا من الذنوب. وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عن الكفار يوم القيامة:

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ ﴾

(الملك: ١٠، ١١)

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبًا دينيًا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها يسأل عن استخدامه لبقية وسائل الإدراك الحسية، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

وهكذا يتضح لنا أن الدين والعقل يتعاونان معًا في تناسق رائع من أجل خير الإنسان في دنياه وأخراه. وقد صور الإمام

الغزالي الصلة بين العقل والدين تصويرًا بديعًا بقوله: «العقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغني أساس مالم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان»[٩٤].

والتعاون بينهما مستمر إلى قيام الساعة. وإذا كنا قد بدأنا حديثنا بتعريف الحضارة بأنها التقدم للأفراد والجماعات فإننا نود أن نؤكد هنا أن تعاليم الإسلام في القرآن والسنة النبوية قد حققت للمسلمين في السابق هذا التقدم الشامل وقاموا بدورهم بتقديم عطائهم الحضاري لكل الأمم والشعوب بلا حدود.

هـ- المسلمون والحضارة في عالم اليوم:

إن العطاء الحضاري الذي قدمه المسلمون إلى العالم أمر لا ينكره إلا جاهل أو مكابر. وقد اعترف العلماء الغربيون المنصفون بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، وكانت مؤلفات علماء المسلمين التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى الأوربية بمثابة الضوء الكاشف الذي أضاء العقول والأفهام في أوربا حينذاك، وفتح الطريق إلى عصر النهضة التي بدأت فيه أوربا تتخلص من العقبات التي كانت تعوق حركتها. فانطلقت تبني حضارتها الحديثة في الوقت الذي بدأت فيه الحضارة الإسلامية تتراجع عن موقعها الريادى فتوقف عطاؤها الحضاري وأخلت الميدان لغيرها. ولا

---

(٩٤) معارج القدس للغزالي ص ٦٠،٥٩(القاهرة ١٩٢٧م)

يــزال هــذا التراجع الحضــاري قائمًا منذ ســقوط الأندلس حتى اليوم. وتبدلت المواقف، وأصبح المســلمون عالة على غيرهم مــن الأمم بعد أن كانت لهم الريــادة الحضارية في غابر الزمان، وقنعــوا حتــى اليوم بــأن يكونوا مجــرد مســتهلكين لمنتجات الحضارة الحديثة وزبائن دائمين في سوبر ماركت الآخرين.

وهذا واقع مؤلم لا نســتطيع إنكاره، ولكننا في الوقت نفسه لا نعمل بما فيه الكفاية للخروج من هذا النفق المظلم، وعلينا أن نــدرك أن العالم الذي نعيش فيه والذي هو عالمنا جميعًا، لم يعــد فيه مكان للضعفاء ولا للمتواكلين، ولم تعد فيه قوة الأمم تقاس بكثــرة المال أو العتاد الحربي وإنمــا بقوة العلم، فالذي يملك العلم يملك القوة ويحظى بالاحترام والتقدير ويحســب له الآخرون ألف حساب.

فهل من ســبيل إلى استعادة المسلمين لأمجادهم التي كانت لهم في يوم من الأيام أم أن الأمل قد تبدد وبخاصة بعد أن اتسعت الفجــوة العلمية والحضارية بيننا وبين مــن بيدهم اليوم مقاليد العلم والحضارة؟ إن اليأس ليس من شيم المؤمنين فإنه :

﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾

(يوسف :٨٧)

و- العطاء القرآني متواصل:

إن تراجع المســلمين الحضاري وتوقف عطائهم منذ سقوط الأندلــس لا يعنــي بأى حال مــن الأحوال أن ذلــك أمر حتمي لا

مفر منه أو أنه حكم نهائي لا رجعة فيه، وذلك لسبب بسيط وهو أن المنابع التي ألهمت أسلافنا وبعثت فيهم الدوافع القوية لإقامةحضارة شامخة لا تزال قائمة بيننا بما فيها من عطاء لا يتوقف مدده، فالقرآن الكريم والسنة النبوية لا ينقطع مددهما، فعطاؤهما متواصل، وسيظل هذا العطاء موصولاً إلى قيام الساعة.

ولكن هذا أمر يتوقف على المسلمين أنفسهم، فعليهم أن يساعدوا أنفسهم أولاً ليكونوا مؤهلين لطلب العون الإلهي:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

فالله لا يعين الكسالى ولا يساعد المتواكلين، ولكنه دائمًا مع العاملين الصادقين:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل: ١٢٨)

وإذا تأملنا الوعود الإلهية القرآنية في قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

نجد أن هذه الوعود الإلهية الثلاثة قد تحققت للمسلمين في عصور سابقة حين شمروا عن ساعد الجد، وجاهدوا وتنافسوا مع غيرهم في ميدان العلم والحضارة، وكانت لهم إبداعاتهم التي عرفها العالم في كل فروع العلم المختلفة، وبذلك استحقوا أن يمدهم الله بمدد من عنده.

والقضية هي أن تحقيق هذه الوعود الإلهية مرة أخرى يتطلب تحمل ضريبة مستحقة قبل طلب العون الإلهي، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في بدايتها مقترنا بتحقيق هذه الوعود، فالوعد الإلهي للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا هو جوهر القضية، فالمشكلة أننا منذ قرون قد توقفنا في فهمنا للإحسان في الآية الأولى وللعمل الصالح في الآية التي معنا الآن على أنهما يعنيان مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج. واعتقد الكثيرون منا أن هذا هو غاية المراد من رب العباد.

ولكن هذا فهم قاصر واختزال للإسلام بشكل يسيء إلى الإسلام ذاته. فالإحسان يعني من بين ما يعني الإتقان في كل الأعمال المطلوبة من الإنسان، والعمل الصالح شامل لكل عمل يقوم به الإنسان، أيا كان هذا العمل دينيًا أم دنيويًا طالما قصد به الإنسان وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم، ومن هنا فإن بذل الجهد والسعي في تحصيل العلم، والتنافس فيه يعد من الأعمال الصالحة ومن قبيل الإحسان، وذلك فضلًا عن أن الله

يسهل لصاحبه طريقًا إلى الجنة – كما جاء في الحديث النبوي الـذي سـبق أن أشـرنا إليه. ولا بد مـن التأكيد هنا أن الشـعائر الدينية المعروفة والالتزام بها من شـأنه أن يكون مقدمة لصالح الأعمال في جميع مناحي الحياة. إن المدد القرآني وأنوار السنة النبويـة لم ولـن يتوقفا عن عطائهما الذي لا حـدود له، ولكننا نحن الذيـن توقفنا عن الوعي بهما والالتفات إلى ما يشـتملان عليـه من العناصر الدافعـة إلى التقدم وترقيـة الحياة في جميع المجـالات، واكتفينـا بالتفاخر بمـا صنعه أسـلافنا من أمجاد حضارية في غابر الأزمان.

ونظـرًا لأن الفجـوة الحضارية بين العالم الإسـلامي والعالم الغربـي قد اتسـعت كثيرًا لصالـح الحضارة الغربيـة فإن الأمر يتطلب منا نحن المسلمين وقفة مع النفس، نراجع فيها أحوالنا مما انتهت إليه، والبحـث عن مخرج من هذا المأزق الحضاري الراهن.

ز- استعادة الثقة بالنفس:

ونعتقـد أن أولـى الخطـوات التـي يجـب اتخاذها فـي هذا الصدد هي ضرورة العمل على استعادة ثقة المسلمين بأنفسهم وبقدراتهـم وبتراثهـم، وهذا أمـر يتطلب جهودًا مشـتركة لأن الأمر يتعلق بمستقبل أمة تعداد سكانها خُمْس سكان العالم.

ومـن المهم أيضًا في هذا الصدد ضرورة تعريف المسـلمين بحضارتهـم وإنجازات علمائهم ومفكريهم الذين أسـهموا في

بناء الحضاة الإسلامية، فالجمهور الأعظم من أبناء المسلمين لا يعرف عن ذلك إلا النذر اليسير، وربما لا يعرف عن ذلك شيئًا على الإطلاق.

وليس الهدف من ذلك كله الدعوة إلى الجمود على ما تم إنجازه من إبداعات حضارية سابقة، وإنما الهدف هو استعادة ثقة المسلمين بأنفسهم وقدراتهم لينطلق علماؤهم ومفكروهم مواكبين للتطورات العلمية الجديدة في جميع جوانب الحياة بعزم أكيد وثقة قوية - لا تعرف التراجع- وإرادة لا تلين.

وهناك أمر آخر في منتهى الأهمية لمسيرة الإنجازات العلمية المأمولة وهي ضرورة الاهتمام بالبحث العلمي في عالمنا الإسلامي وذلك بتوفير الاعتمادات المالية الكافية، وتوفيرأحدث الأجهزة والمعدات للباحثين في عالمنا الإسلامي حتى لا يضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الجامعات والمراكز البحثية في الغرب، وهناك تنطلق طاقاتهم وقدراتهم العلمية، ونرى إبداعاتهم وابتكاراتهم التي تحظى بالتقدير والاحترام من أرقى الجامعات والمراكز البحثية العلمية، وهناك أمثلة كثيرة في هذا الصدد.

ويزعم البعض منا أن الاستعمار الجديد يسرق الكفاءات العلمية من الشرق الإسلامي، والحقيقة المرة على العكس من ذلك تمامًا، فالكثيرون من أصحاب الكفاءات العلمية المتميزة في عالمنا الإسلامي لاتجد في وطنها دعمًا ولا تشجيعًا يحفزها على البقاء

ويوفر لها الأجواء المناسبة لتحقيق طموحاتها العلمية، وتحويل أحلامها إلى إنجازات تسهم في التقدم العلمي والحضاري.

إن الموهوبين من شباب الباحثين في أشد الحاجة إلى رعاية خاصة واهتمام وتشجيع حتى تتحول هذه البراعم الجديدة إلى لبنات صلبة في بناء صرح جديد للحضارة الإسلامية الجديدة

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

(إبراهيم: ٢٠)

إن مصادر الإلهام الحضاري في القرآن الكريم والسنة النبوية التي ألهمت علماء المسلمين في السابق إبداعاتهم الحضارية التي أبهرت العالم حينذاك لا تزال أنوارها متوهجة كما كانت دائمًا تضيء الطريق أمام الحائرين وتزيل الغشاوة عن الأبصار والبصائر، وفي أشعة هذه الأنوار تتفجر الطاقات وتنطلق الإبداعات في منافسة متكافئة مع الآخرين في كل مجالات التقدم والارتقاء، كما حثنا على ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (البقرة: ١٤٨)

والأمل في عون الله وتوفيقه كبير، ولكن الأمر يحتاج إلى جهد بشري غير عادي . وصدق الله العظيم القائل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

فهرس المحتويات

مقدمة ٣
الفصل الأول: مقدمات عامة ٥
١- تحديد معنى الفكر ٦
٢- العقل الإنساني ١١
٣- الطابع الإنساني للفكر الإسلامي ١٤
٤ ـ ملامح أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ١٩
٥ ـ الإسلام والفكر الإسلامي ٢٣
٦- التجديد والاجتهاد ٣٠
الفصل الثاني: من مظاهر الجمود في الفكر الإسلامي المعاصر ٣٧
تمهيد ٣٨
١- في مجال الدراسات الفقهية ٤٢
أولا: الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع ٤٢
ثانيا: قضايا في حاجة إلى اجتهاد جديد ٤٨
٢- في مجال الدراسات العقدية ٥٧
٣- في مجال التفسير وعلوم القرآن ٦٩
٤- في مجال الحديث النبوي ٧٥
٥- الفكر الإسلامي والتيارات المعاصرة ٨٠

الإِسلام والعولمة ٨٤
الفصل الثالث : الجانب الحضاري في الإِسلام والفرائض الغائبة ٩٩
تمهيد ١٠٠
أولاً : العقيدة والشريعة في الإِسلام والفرائض الغائبة ... ١٠١
الإِسلام عقيدة وشريعة ١٠١
العقيدة ١٠٣
الشريعة ١٠٥
الأخلاق ١٠٨
الحضارة والفرائض الغائبة ١١٠
التفكير والعلم ١١٣
ثانيا : دور الإِسلام في تطوير الفكر الحضاري
لدى المسلمين ١١٧
١- تمهيد ١١٧
٢- دور الإِسلام في تطوير الفكر الحضاري لدى المسلمين ... ١١٨
أ-عود على بدء ١٢١
ب- الحضارة فريضة إسلامية ١٢٣
ج- مفهوم العلم في الإِسلام ١٢٤
د- دور العقل في الإِبداع الحضاري ١٢٦
هـ- المسلمون والحضارة في عالم اليوم ١٢٨
و- العطاء القرآني متواصل ١٢٩
ز- استعادة الثقة بالنفس ١٣٢